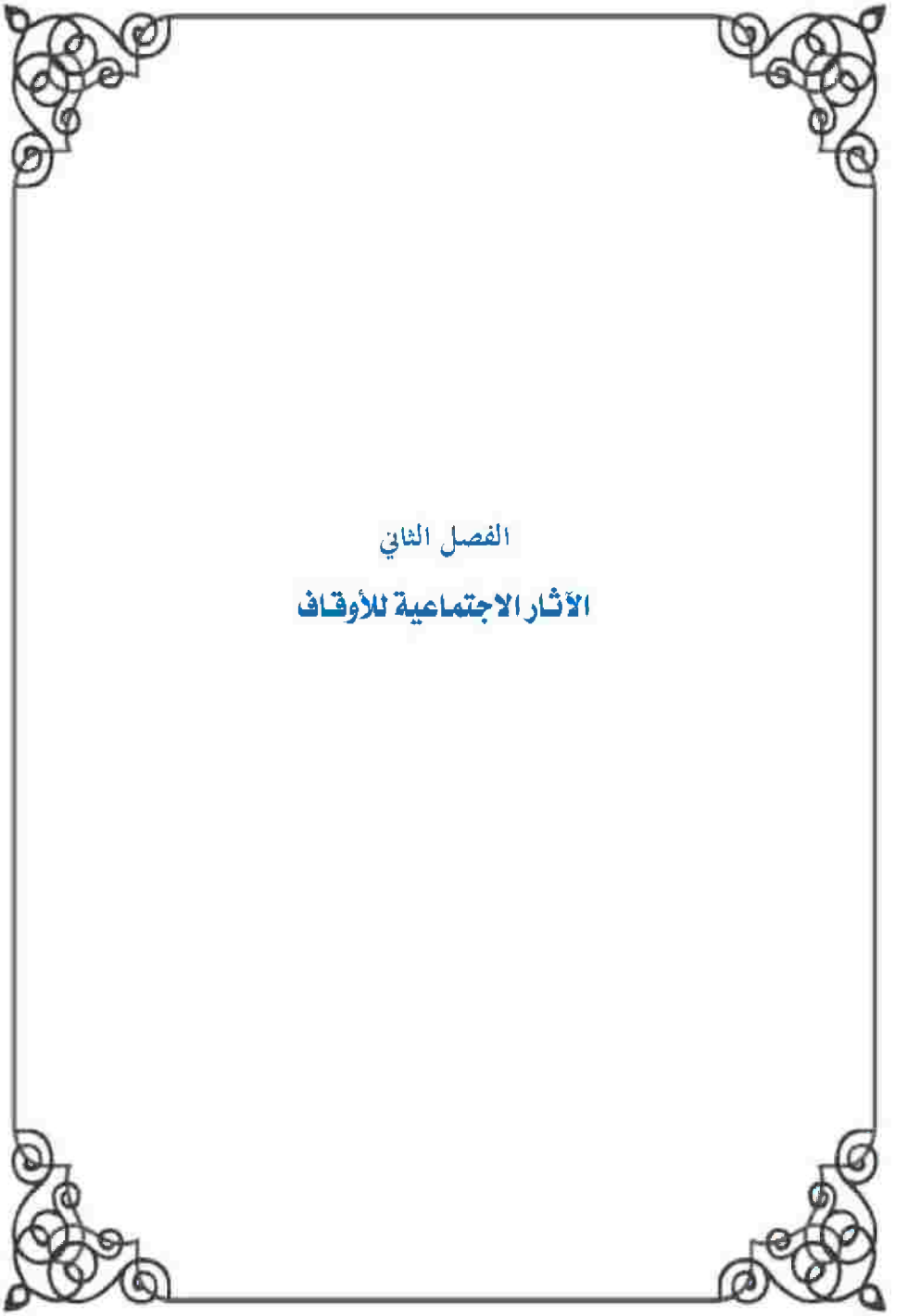

الفصل الثاني

الآثار الاجتماعية للأوقاف

الفصل الثاني

الآثار الاجتماعية للأوقاف

لا تخلو أي دراسة عن الوقف من ذكر الآثار المترتبة عليه، إلا أن التركيز غالبًا ما يكون على الآثار الاقتصادية، أو الآثار التعليمية وانتشار الثقافة في المجتمع. وعلى الرغم من أهمية تلك الآثار الاجتماعية وكثرتها، فإن دور الوقف الاجتماعي، وآثاره في تركيبة المجتمع على مدى العصور السابقة لا يقل عن دوره في الجوانب الاقتصادية والثقافية والصحية إن لم يفقها، ولا يكاد يوجد جانب من جوانب الحياة في المجتمع إلا وله صلة بنظام الأوقاف من قريب أو بعيد، بل يرى أحد الباحثين أن "الأوقاف عمل اجتماعي، دوافعه في أكثر الأحيان اجتماعية وأهدافه دائمًا اجتماعية، فالأوقاف الإسلامية في الأصل عمل اجتماعي"(١).

بل يمكن اعتبار البعد الاجتماعي والجوانب الخيرية في الغالب هو المرتكز الذي تؤسس عليه الأوقاف، حيث نجد أن معظم الواقفين ينصّون في حججهم الوقفية على مساعدة الفقراء والمساكين حتى ولو كان وقفهم لأغراض أخرى.

ونظرًا لهذا الجانب الإنساني؛ فقد نصّ الفقهاء على أنّ كل وقفٍ لم يذكر فيه الواقف مصرف غلته يؤول إلى الفقراء والمساكين (٢).

لقد كان مسجد قباء أول وقف في الإسلام، حين قدم رسول -ﷺ- مهاجرًا إلى المدينة المنورة وقبل أن يدخلها، ثُم بعد ذلك المسجد النبوي بالمدينة حيث بناه الرسول -ﷺ- في السنة الأولى للهجرة لتعلن به الدولة الإسلامية عن وجودها عمرانيًا، وتطور

---

(١) الوقف في الفكر الإسلامي، محمّد بن عبدالعزيز بن عبدالله، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٦هـ، جزء ٢، ص ٢٢٠.

(٢) مستقبل المؤسسات الوقفية في نطاق الثابت والمتغير لنظام الوقف الإسلامي، جمعة محمود الزريقي، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ٧، السنة الرابعة، ١٤٢٥هـ، ص ٧٩.

الأمر بوقف المساجد حتى صار مكونًا أساسًا من مكونات النشاط الاجتماعي في المجتمع المسلم أينما وجد ذلك المجتمع، بل صار المسجد هو مركز كل مدينة يختطها المسلمون؛ ففي كل المدن الإسلامية في مصر والشام والعراق في الوقت الحالي مساجد يرجع تاريخها إلى زمن الخلفاء الراشدين.

فمدينة البصرة بدأت بجامع البصرة الأول الذي أسس في زمن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حينما وجه أمره إلى الصحابي الجليل عتبة بن غزوان -رضي الله عنه- بتأسيس البصرة في عام (١٢هـ/٦٣٣م) فكانت البداية بالمسجد، وكذلك مدينة الكوفة كانت البداية بمسجدها المشهور الذي أسسه سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- زمن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في عام (١٧هـ/٦٣٨م)، وأكد -رضي الله عنه- على تأسيس مسجدها وجعله محور المدينة، كما أن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- حينما اختط الفسطاط عام (٢١هـ/٦٤١م) بنى مسجدها العتيق ابتدًاء، وكذلك مدينة القيروان التي أسسها عقبة بن نافع عام (٤٥هـ/٦٦٥م) [(١)].

فكان المسجد هو مركز المدينة ومحورها، وبؤرة نهضتها، ثُم تستتبعه المرافق الوقفية الأخرى، مثل: المدارس، والبيمارستانات، والخانات، والحمامات، والأسواق.

ومن هنا نرى أن المسجد هو المبنى الرئيس في أية مدينة إسلامية، وهو منهج نبوي سار عليه الخلفاء الراشدون والعديد من بعدهم من القادة العسكريين الفاتحين لمختلف بلدان المعمورة، "ومن هنا اعتبر الدارسون والمؤرخون أن المسجد هو أحد أهم الأسس إن لم يكن أولها في تخطيط المدينة الإسلامية"[(٢)].

---

(١) استراتيجيات مدنية وعسكرية من عصر الراشدين، عبدالعزيز بن إبراهيم العمري، بدون ناشر، الرياض،١٤٢٧هـ، ص ١٩٤. وكذلك: المشكلات المؤسسية الوقفية في التجربة الإسلامية التاريخية، ياسر عبدالكريم الحوراني، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ١٤، السنة الثامنة، جماد الأول ١٤٢٩هـ، ص ٨٥.

(٢) العمارة الإسلامية والبيئة: الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، يحيى وزيري، كتاب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٣٠٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ١٣٥.

ومن ذلك يمكن رؤية العديد من المدن الإسلامية التي تبدأ بمشروع وقفي لتنهض على أساسه تلك المدن فيما بعد[١]، ولعل أبرز مثل على ذلك بعض المدن في (البوسنة والهرسك) مثل: سراييفو، وتيرانا، وكورتشا، توزلا، موستار، وغيرها. كما أن الوقف ساعد على التطور السريع في نمو العديد من المدن في البلقان مثل: بلغراد، وسالونيك، وغيرها، إلى درجة أن هناك بعض المدن أصبح اسمها مركبًا من كلمتين مثل: (اسكندر وقف)، و(غوربي وقف)، و(دوني وقف)، (كولن وقف)، وكل ذلك دلالة على أن للوقف الدور الأكبر في قيامها أو تطورها[٢].

ثم توسع المجال الوقفي في التطبيقات بناءً على بروز حاجات اجتماعية اقتضت أن يوفر لها الوقف موارد مالية دائمة وثابتة، فالدارس للوقف في الحضارة الإسلامية يعجب من التنوع الكبير في مصارف الأوقاف، والتلمس الحقيقي لمواطن الحاجة في المجتمع لتسد هذه الحاجة عن طريق الوقف، وكانت تتطور بتطور الزمن، وتتجدد بتجدد الحاجات في المجتمع وتنوعها بشكل ملحوظ، ويمكن رصد ذلك بسهولة من خلال تتبع مسار

---

(١) انظر، أبرز مثال على ذلك النوع من المدن التي قامت على بذرة وقفية مدينة (كاتشانيك) في منطقة البلقان والتي بدأت ببناء حصن عسكري صغير في عام (٩٨٨هـ/١٥٨٠م) لتأمين المنطقة أمنيا من قطاع الطرق وأنشأ القائد (سنان باشا) وهو أحد القادة العسكريين في الدولة العثمانية بجوار ذلك الحصن مجمعًا وقفيًا عبارة (جامع، وتكية، ومدرسة أطفال، وخان لأبناء السبيل العابرين، وحمام)، وكان يدير هذا المجمع الوقفي قرابة الأربعين شخصًا، وأدى قدومهم مع عائلاتهم إلى تشكيل نواة سكانية مستقرة، واستمرت في النمو حتى أصبح عدد سكانها الآن قرابة خمسين ألف نسمة، وهي تتبع يوغسلافيا بعد نهاية الحكم العثماني للمنطقة، وما زالت المدينة تحتفظ بالنواة الإسلامية لنشأتها وهو المجمع الوقفي بعد تحويله إلى فندق سياحي. انظر: دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، محمّد موفق الأرناؤوط، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٤٢١هـ، ص ٥٧-٥٩.

(٢) دور الوقف في نشوء المدن الجديدة في البوسنة (سراييفو نموذجًا)، محمّد الارناؤوط، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ٨، السنة الخامسة، ربيع الأول ١٤٢٦هـ، ص ٤٧. وكذلك: دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص١٥٤. وكذلك: الأوقاف في البوسنة والهرسك: التاريخ والوضع الراهن والتطلعات المستقبلية، المشيخة الإسلامية في البوسنة والهرسك، سراييفو، ٢٠١٠م، ص ١٠.

المصارف الوقفية، بخاصة في القرون العشرة الأولى من التاريخ الإسلامي.

إلا أن الدور الفاعل للوقف في المجال الاجتماعي يتمثل في مظاهر عدة؛ فقد كان الواقفون يتبارون في ابتكار أغراض من الرعاية الاجتماعية لمن يحتاجها، ولم يتوقف الأمر على الإنسان فحسب، بل بلغ الأمر حتى إلى البيئة والحيوان فقد كان هناك أشكال عديدة من الأوقاف ذات المضمون الاجتماعي، فوجدت أوقاف لصيانة الترع والأنهار وإقامة الجسور عليها، وأوقاف لطيور الحرمين الشريفين، وأوقاف لإطعام الطيور والعصافير في مدن عديدة من العالم الإسلامي، وأوقاف للقطط وأوقاف للحيوانات الأهلية الهرمة أو المعتوهة.

ولعل الأغرب في ذلك ما يسمى بوقف الإبريق، وهو ينمُ عن حس إنساني رفيع، وعلى درجةٍ عاليةٍ من تلمس الاحتياج الفعلي لمجتمع الوقف، "وكان لهذا الوقف (دكانٌ خاصٌ) لتوزيع الأواني الفخارية في باطن بيروت وكانت مهمة القيّم على الوقف إعطاء الصبي والفتاة والفقير والغلام وعاءًا فخاريًا سليمًا مجاناً مقابل الوعاء الذي كُسر معه أثناء قيامه بعمله، والحكمة في ذلك أن الصبي إذا أرسله معلمه لملء الإبريق ماءً من السبيل، ولسبب كُسر الإبريق فبدلًا من تعرض الصبي للضرب والتوبيخ والإهانة أو الطرد من العمل فإنه بإمكان هذا الصبي أخذ الإبريق المكسور إلى وقف الإبريق والحصول على إبريق جديد"[١].

كما وجدت صورة مكررة من هذا الوقف، ومشابهةٌ له في المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري، حيث وجد "وقف تمّ تخصيصه من أجل استبدال الجرار التي تكسرها الفتيات في المدينة وهن ذاهبات لحمل الماء من مصادره"[٢].

---

(١) التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر سجلات المحكمة الشرعية في بيروت، حسان حلاق، الدار الجامعية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ص ٢٦.

(٢) المغاربة في المدينة المنورة إبان القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عش الميلادي، محمد علي فهيم بيومي، دار القاهرة،

والصورة ذاتها نراها مرة أخرى في مدينة (فاس) بالمغرب، حيث وجدت أوقاف لتعويض الأطفال عما يكسرونه من أوانٍ فخاريةٍ مخافة تعرضهم للعقاب من قبل مشغليهم أو والديهم، فما عليه إلا أن يأتي بالإناء المتكسر، ليأخذ بدلًا عنه إناءًا سليمًا ليسلم من العقاب من قبل سيده [١].

وقد ذكر مثل هذا الوقف -تمامًا- الرحالة (ابن بطوطة) في رحلته خلال القرن الثامن الهجري إلى بلاد الشام، ووصف قصة واقعية حدثت أمامه عن وقف الإبريق [٢]، ولكن كان الوقف والحادثة التي يصفها (ابن بطوطة) في دمشق، وليست في بيروت ولا في المدينة المنورة ولا في مدينة فاس، والفاصل الزمني بينهم أكثر من خمسة قرون، ولعل الأوقاف التي ظهرت في كل من بيروت والمدينة المنورة وفاس تكرار عما كان في دمشق، ومن سن في الإسلام سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

والأكثر غرابةً مما ذكر سابقًا ما يورده أحد الباحثين من أنه وجد بعض الأوقاف في جنوب الجزائر مخصصة لمن يحمي الناس من أذى الحشرات السامة، كالعقارب، والأفاعي، فيخصص منحًا لكل من يقتل عقربًا أو أفعى، لما في ذلك من كف أذاها عن الناس، لذلك جاز تطعيم الكلاب الضالة، بمال الوقف حتى لا تصاب بداء الكلب، وشراء الأدوية لمكافحة بعض الحشرات الضارة، كالجراد، والقمل، وفي كل هذا سبيل خير، يعود على الإنسان والمجتمع بالخير [٣].

=

القاهرة، ١٤٢٧هـ، ص ١٦٦.

(١) حماية القاصرين في نظم الوقف ببلاد المغرب والأندلس، وداد العيدوني، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ١٣، السنة السابعة، شوال ١٤٢٨هـ، ص ٥٣.

(٢) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ابن بطوطة، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤١٧هـ، ج١، ص١٢٠.

(٣) البعد الإنساني العام للوقف الإسلامي، عبدالرزاق قسوم، في (مؤتمر الشارقة للوقف الإسلامي والمجتمع الدولي)، الشارقة ١٤٢٦هـ.

كما وجد وقف في بلدة (أشيقر) وهي بلدة في وسط نجد مخصص لشراء سم لقتل الذئاب التي كانت تهاجم غنم البلد، ووقف آخر (للدمام)، ويقصد به الطبل لإعلام الناس بدخول شهر رمضان وخروجه، واستنهاض الهمم لرد مكروه أو استرجاع منهوب(١).

ولكن الجانب الاجتماعي الأظهر من الأوقاف كان يتمثل في المدارس والمحاضر والدور التي أنشئت خصيصًا للأيتام، ويوفر لهم فيها المأكل والأدوات المدرسية، كما يتمثل دور الوقف في مجال الرعاية الاجتماعية في الأربطة، والخانقاوات، والزوايا، والتكايا، بالإضافة إلى الأسبلة التي يقصد بها توفير ماء الشرب للمسافرين، وعابري السبيل، وجموع الناس سواء داخل المدن أو خارجها.

ويمكن أن نعد كل ذلك مؤسسات اجتماعية أدت دورها الاجتماعي باقتدار، على الرغم من صعوبة استمرار مثل هذه المؤسسات الاجتماعية وبقائها فترات طويلة وعلى مدى أجيال متوالية، ويعود ذلك إلى حاجتها الكبيرة جدًا إلى موارد مالية دائمة لا تتوقف ولا تنضب.

وقد تحقق لها ذلك بفضل من الله ثم بفضل نظام الوقف الذي ازدهر في تصاعد مع ازدهار الحضارة الإسلامية، ذلك أن الملاحظ في كثير من حلقات التاريخ وفي العديد من بلاد العالم توقف مؤسسات خيرية ضخمة عن أداء رسالتها بعد مدة من الزمن، بسبب نضوب مواردها المالية وإفلاسها مما يضطرها إلى طلب مساعدة الأخيار بين حين وآخر، أما في الحضارة الإسلامية فإنه قل أن تجد مثيلًا لهذه الظاهرة(٢).

---

(١) الأوقاف في بلدة أشيقر: أنواع ونماذج، عبد الله البسيمي،
http://www.al-jazirah.com/٢٠٠٠١٢١٠/٢٠٠٠/wo١.htm

(٢) المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، سعيد عاشور، في (موسوعة الحضارة العربية الإسلامية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ج٣، ص٣٤٠.

وحين الحديث عن المجالات فإنه يحسن إيراد هذه الأبيات التي نظّمها الحاج أحمد بن شقرون في مجالات الوقف ومصارفه الاجتماعية[١]:

أصخ تدر ما سدى أخ الذوق من جدا ... وفي حبس يستحسن السبق للخيرِ
إذا عطب اللقلاق يومًا، فإنه ... بمالٍ من الأوقاف يجبر من كسرِ
وإن لم تجد أنثى مكانًا لعرسها ... فدار من الأوقاف تنقذ من فقرِ
وان لم تجد عقدًا لجيد، فإنه ... يُعارُ من الأوقاف يوصل للخدرِ
وإن جن مجنون، فإن علاجه ... بمال من الأوقاف يصرف للفورِ
وقد أوقفوا جبر الأواني، ربما ... يهشمها طفل، فتقع من أجرِ
ولكن بمال من الأوقاف يأخذ غيرها ... بلا عوض منه، فيسلم من خسرِ
وقد أوقفوا دار الوضوء نسوة ... يردن صلاة في حياء وفي سترِ
وقد أوقفوا وقفا يخص مؤذنا ... يؤذن للمرضى، بعيدًا من الفجرِ
ليكشف عنهم من كثافة غربة ... حجاب ظلام الليل والسقم والوترِ
مبرات أوقاف الأولى قصدوا إلى ... معان من الإحسان جلت عن الحصرِ

وعلى الرغم من كثرة الأوقاف وتعدد صورها وأنواعها؛ إلا أنه يمكن تصنيف الأوقاف وجعلها في مجموعات محددة وفق مردودها على المستفيدين منها إلى الأصناف الآتية:

أ- **وقف ديني وثقافي** يراد منه أن تسند وظائف المؤسسات الدينية كالوقف على الحرمين الشريفين والمساجد عموما، أو الوظائف العلمية كالمدارس والمعاهد التعليمية والتدريبية، وهذا النوع من الأوقاف هو الأظهر على مستوى العالم الإسلامي زمانا ومكانا.

---

(١) الوقف في الإسلام ودوره في الحياة المجتمعية بالمغرب، السعيد بو ركبة، مجلة الإحياء، رابطة علماء المغرب، الرباط، العدد العاشر، ١٤١٨هـ، ص ٤٩.

ب- **وقف اجتماعي** يوفر أرصدة مالية للقيام بوظائف اجتماعية وحضارية عديدة ومن ذلك رعاية الأيتام والغرباء والمرضى، وأبناء السبيل والمحتاجين بمختلف مستوياتهم وأنواعهم.

ج- **وقف أهلي** يراد منه توفير دخل ثابت لقرابة الواقف ولذريته خصوصًا وهذا النوع من الأوقاف هو الأقل، بل هناك العديد من الدول المعاصرة ممن منعت هذا النوع من الأوقاف؛ للتعدي في تطبيقه من قبل الواقفين أحيانًا، أو من النظّار أحيانا أخرى، وليس في الوقف ذاته.

وحيث إن هذه الدراسة تتركز بدرجةٍ كبيرةٍ على الجانب الاجتماعي، فسوف نذكر نماذج من تلك المؤسسات الاجتماعية كصورٍ مختارةٍ فقط؛ لنتعرف بشكل جليّ وشموليّ على أثر الأوقاف في المجتمع، سواء أكان ذلك الأثر فوري النتيجة ومباشرا أم كان غير مباشر، ويحتاج إلى سنوات طويلة لتتبين المجتمعات أثره ودوره في حياتها، ومن ذلك في المجالات الآتية:

أولًا: في مجال رعاية الأيتام:

نجد الحرص الكبير من المسلمين على رعاية الأيتام وتربيتهم من خلال الأوقاف؛ بحثًا عن الأجر والمثوبة، وطلبًا لمرافقة نبيهم محمد -عليه الصلاة والسلام- في الجنة؛ ففي الحديث الصحيح أن رسول الله -ﷺ- قال: ((أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى))[1].

ويلاحظ هنا عدم وجود مؤسسات إيوائية كاملة -بمعنى الكلمة- للأيتام، كما هو قائم الآن في عصرنا الحاضر؛ بحيث ينشأ اليتيم منذ صغره في تلك المؤسسات، وهذا يعود إلى أمرين أساسيين:

---

(١) صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، حديث رقم ٦٠٠٥.

الأول: حرص الأسر المسلمة على رعاية أيتامها، فالتكافل كان على أشده في تلك العصور، فلا توجد مشكلة تخلي الأسر عن رعاية أيتامها.

الآخر: قلة عدد اللقطاء في المجتمع مقارنة بالعصر الحالي، ويعود ذلك إلى الضبط الأخلاقي العام في المجتمع المسلم الأول، فكل يتيم سيعيش في وسط أسرته على الرغم من وفاة والده، أو لدى أسرة قريبة له ترعاه. ومن هنا فليس ثمة حاجة إلى مثل هذه المؤسسات الإيوائية.

وقد يكون هناك أسباب أخر في عدم وجود مثل هذه المؤسسات الإيوائية، ولكنها ليست رئيسة، مثل: صعوبة الإنفاق على المؤسسات الإيوائية لكثرة ما تحتاجه؛ فإنه يلزمها مصاريف مادية أكثر مما يحتاجه غيرها، مثل المدارس والمساجد أو الأسبلة، حيث يلزم توفير جميع الاحتياجات المعيشية والتعليمية، والتأريخ يثبت أن أول المؤسسات الاجتماعية تضررًا من تناقص أغلال الأوقاف هي مكاتب الأيتام[(١)].

إلا أنه لابد من الإشارة إلى أن الإمام (الذهبي) ذكر في كتابه (العِبَر) أن (زين الدين علي كجك) والد (مظفر الدين كوكبوري) بنى دارًا للأيتام واللقطاء، وأن ابنه (مظفر الدين) المتوفى عام (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) بنى كذلك دارًا للقطاء، ورتّب فيها جماعة من المراضع، وكل مولود يلتقط يحمل إليهن فيرضعنه[(٢)]. وبكل حال فهذه حالة فريدة. وقد تكون انتهت في وقتها، ولم تستمر طويلًا للأسباب المذكورة آنفا. فلم أعثر فيما بين يدي من مراجع عن استمرار هذه الدار، أو تكرار لها. وهي منشأة فريدة على مرّ التاريخ الإسلامي المعلوم خبره.

---

(١) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨-٩٢٣) دراسة تاريخية وثائقية، محمّد محمّد أمين، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٢٤٢ وكذلك ص ٢٦٣.

(٢) العبر في خبر من غبر، الذهبي، تحقيق: أبو هاجر محمّد السعيد، دار الكتب العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ، الجزء ٣، ص٢٠٨.

ولقد حاولت تتبع بداية نشأة هذه المؤسسات الاجتماعية المتخصصة في إيواء الأيتام إيواءً كاملًا في الدول الإسلامية أو العربية كما هو قائم حاليًا، أو ما يُعرف بالدور الإيوائية، أو الملاجئ، أو الميتم. فلم أجد سوى إشارة يسيرة إلى أن الإمام فيصل بن تركي آل سعود وهو أحد حكام الدولة السعودية الثانية قد أوقف دارًا لليتامى عام (١٢٥٩هـ/١٨٤٣م) بجوار قصر الحكم بمدينة الرياض، وكانت ترعى الأيتام واللقطاء وأبناء الذين يُفقدون في القتال [١] ذلك أن تلك الفترة من تأريخ الدولة السعودية الثانية كانت فترة معارك متواصلة وغزوات متتابعة لتوطيد الحكم.

كما وردت إشارة عابرة إلى أن الإرسالية الأجنبية في سوريا أقامت دارًا للأيتام سمتها (دار الأيتام السورية) في عام (١٢٧٧هـ/١٨٦٠م)، ثُم تبع ذلك دار أخرى أنشأها الوالي مدحت باشا بعد عشرين عاما في سوريا، عام (١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م) [٢].

ويذكر (إبراهيم البيومي غانم) أن أحد الواقفين في مصر أنشأ ملجأ للأيتام بمدينة (سمنّود) في عام (١٣٣٩هـ/١٩٢٠م) [٣]. كما تشير بعض المراجع إلى أنه في عام (١٣٤١هـ/١٩٢٢م) قام بعض الأعيان في بيروت بتأسيس ما يُسمى (الميتم الإسلامي) في مبنى استأجروه لهذا الغرض [٤].

وفي عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٧م) أوقفت إحدى المحسنات عددًا من الأفدنة الزراعية لإنشاء

---

(١) تاريخ المساجد والأوقاف القديمة في بلد الرياض إلى عام ١٣٧٧هـ، راشد بن مُحَمَّد بن عساكر، مرامر للطباعة الإلكترونية، الرياض، ١٤٢٠هـ/٢٠٠م، ص ٣٣٠.

(٢) عصر التكايا والرعايا: وصف للمشهد الثقافي لبلاد الشام في العهد العثماني (١٥١٦م-١٩١٨م)، شاكر النابلسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٤٢٩.

(٣) الأوقاف والسياسة في مصر، مرجع سابق، ص٣١٣. ويشير المرجع السابق إلى أن الملجأ استمر يؤدي وظيفته بكفاءة حتى عام (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)

(٤) تطور تنظيم الوقف في لبنان: نموذج رعاية الأيتام في مدينة بيروت، حنان إبراهيم قرقوتي، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ١٢، السنة السابعة، جماد الأول ١٤٢٨هـ، ص ١١٤.

ملجأ لليتيمات في مصر[١]. كما تشير بعض المراجع إلى أنه في العشرينات من هذا القرن الميلادي كانت هناك مؤسسة للأطفال اللقطاء ومجهولي الأبوين أقامتها الإرساليات الأجنبية في البحرين، وتولت رعايتهم فيها، ولكن دون تحديد تأريخ السنة بشكل دقيق، وهناك إشارة أخرى إلى أنه في الثلاثينات من هذا القرن الميلادي كان هناك دور للأيتام في العراق، وفي عام (١٣٥٢هـ/١٩٣٤م) أنشأ الحجاج الهنود دارا لرعاية الأيتام في المدينة المنورة لإيوائهم وتعليمهم الصنائع[٢].

ومن أشهر الأوقاف لرعاية الأيتام إنشاء مكاتب لتعليمهم ورعايتهم، دون أن يكون هناك إيواء لهم[٣]، ومن ذلك ما نقل في مآثر صلاح الدين الأيوبي أنه أمر بعمارة مكاتب ألزمها معلمين لكتاب الله يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة، ويجري عليهم الجراية الكافية لهم[٤]. ويقصد بالجراية الكافية هنا: مأكلهم وكسوتهم وأدوات دراستهم.

ومن صور رعاية الأيتام مكتب السبيل الذي أنشأه السلطان الظاهر بيبرس بجوار مدرسته وقرر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز في كل يوم، بالإضافة إلى الكسوة في فصلي الشتاء والصيف، كذلك أنشأ السلطان قلاوون مكتبًا لتعليم الأيتام ورتّب لكل طفل بالمكتب جراية في كل يوم، وكسوة في الشتاء وأخرى في الصيف[٥].

وممن أولى الأيتام اهتمامًا خاصًا عن طريق الوقف لرعايتهم والعناية بهم الطواشي

---

(١) الأوقاف والسياسة في مصر، مرجع سابق، ص ٣١٣.

(٢) أطفال بلا أسر، عبدالله بن ناصر السدحان، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٣هـ، ص ٥٣.

(٣) لعله من المناسب الإشارة إلى أن المقصود هنا ليس إنشاء مقرات أو بيوت أو دورا اجتماعية لرعايتهم، كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما الوضع لا يعدو أن تكون هذه المدرسة مخصصة للأيتام الذين هم بطبيعة الحال لدى أسرهم الطبيعية أو لدى من يقوم بكفالتهم في المجتمع، ولا يتصور من واقع الاستقراء للمراجع التاريخية أو من خلال من قام بوصف هذه المكاتب المخصصة للأيتام أنها دورا إيوائية بمعنى الكلمة كما هو الوضع الآن في وقتنا المعاصر.

(٤) رحلة ابن جبير، ابن جبير، دار صادر، بيروت، بدون: ت، ط، ص ٢٧.

(٥) المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٣٤٣.

ظهير الدين مختار، وهو من أمراء دمشق في القرن السابع الهجري، الذي أوقف مكتبًا للأيتام على باب قلعة دمشق، ورتب لهم الكسوة والجامكية -المرتب الشهري- وكان يمتحنهم بنفسه ويفرح بهم[١].

ومنهم كذلك (خوندتتر) الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر محمد قلاوون، إذ جعلت بجوار المدرسة الحجازية التي وقفتها مكتبًا للسبيل، فيه عدد من أيتام المسلمين ولهم مؤدب يعلمهم القرآن، ويجري عليهم في كل يوم لكل منهم من الخبز النقي، خمسة أرغفة، ومبلغًا من الفلوس (المال)، ويقام لكل منهم بكسوتي الشتاء والصيف[٢].

ومما سبق يمكن القول إنه في العصر المملوكي قلما يوجد أمير أو سلطان إلا أوقف للأيتام مكتبًا لتعليمهم والصرف عليهم، ومن يستقرئ الوثائق الوقفية فإنه يلاحظ قلما تخلو وثيقة وقف خيري من تخصيص جزء من ريع ذلك الوقف لتعليم عدد من الأطفال الأيتام، كما يؤكد أنه قلما يوجد مسجد أو مدرسة وقفية، بخاصة في العصر المملوكي إلا ويوجد بجوارها مكتب لتعليم الأيتام. "بل إن بعض السلاطين أحدثوا في بعض الأمصار الإسلامية منصب (ناظر الأيتام)، بعد أن كثرت الأوقاف المخصصة لهم"[٣].

ولقد استرعت ظاهرة كثرة المدارس والمحاضر التي تُعنى بالأيتام الرحالة ابن جبير، فقد عدَّها من أغرب ما يُحَدَّث به من مفاخر البلاد الشرقية من العالم الإسلامي، ثم ذكر بعض ما شاهده من أمور مرتبة لهؤلاء الأيتام. ولم تتوقف رعاية الأيتام من خلال الأوقاف على تعليمهم وتوفير المأكل والكسوة والمساعدات المادية لهم فقط، بل حرص الواقفون على توفير الأدوات التعليمية مثل الأقلام والمداد والألواح والدوى -المحابر- والحصر التي

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، بدون: ت، ط، ج١٤، ص ٧٨.

(٢) الوقف والمجتمع: نماذج وتطبيقات من التأريخ الإسلامي، يحيى محمود جنيد، مؤسسة اليمامة الصحفية، سلسلة كتاب صحيفة الرياض، الرياض، العدد ٣٩، ١٤١٧هـ، ص ٥٦.

(٣) حماية القاصرين في نظم الوقف ببلاد المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص ٤٦.

يجلسون عليها. كما حرص الواقفون على تحديد كل ما يتعلق بتعلم الأيتام ورعايتهم في هذه المكاتب وبتفصيل دقيق، ومن ذلك تحديد المناهج، وطرق التدريس، والتأديب، والتربية، ففي إحدى الوثائق الوقفية نرى النص التالي: "ويعلمهم -أي الأيتام- الأدب أولًا ثمّ ما يطيقون تعلمه من كتاب الله والخط العربي"(١)، كما نجد في وثيقة أخرى ورود النص الآتي حول تدريس الأيتام: "ويعلمهم الفقيه ما تيسر لكل منهم تعلمه من القرآن والخط والهجاء والاستخراج إسوة بأمثالهم على العادة ... ويعاملهم المؤدب بالإحسان والتلطف فيما يرغبون به في الاشتغال، ومن أتى منهم بما لا يليق أدبّه بفعل ما أباحه الشرع الشريف، ولا يضرب الضرب المبرح"(٢).

ولقد بلغ حرص الواقفين على العناية بالأيتام أن اشترطوا مواصفات محددة في المؤدب الذي يتولى تعليمهم وتربيتهم، ومن ذلك أن يكون المؤدب من أهل الخير، والدين، والأمانة، والعفة، والصيانة، حافظًا لكتاب الله عالماً بالقراءات السبع وروايتها، وأحكامها، وأن يعامل الأيتام بالإحسان والتلطف والاستعطاف. ويتجاوز الأمر لدى بعض الواقفين إلى اشتراط شروطٍ أكثر صرامة، ومن ذلك ما ورد في إحدى الوثائق الوقفية أن يكون "رجلًا حافظًا لكتاب الله العزيز، ذا عقل وعفة وصيانة وأمانة، متزوجًا زوجة تعفه، صالحًا لتعليم القرآن والخط والأدب"(٣).

كما اعتنى الواقفون بمواعيد الدراسة وأيامها وأوقاتها، وتحديد ما يتم تدريسه في كل فترة ومرحلة عمرية، وجعل أيامٍ يرتاح فيها الأيتام من عناء الدراسة من كل أسبوع، ومن ذلك ما ورد في وثيقة السلطان (قايتباي) حيث ذكر فيها أن الأيتام يستمرون في أيام حضورهم بالمكتب من طلوع الشمس إلى وقت العصر فينصرفون حينئذ. وقبل انصرافهم

---

(١) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٦٥ وما بعدها.

يقرءون سورة الإخلاص والمعوذتين، وفاتحة الكتاب، والصلاة على النبي -ﷺ- ويدعون ماعدا يوم الخميس من كل جمعة فإنهم يستمرون بالمكتب إلى الظهر ويوم الجمعة عطلتهم، ولم تتوقف الرعاية الشاملة لهم حتى عند غيابهم عن المكاتب، وامتدت الرعاية حتى بعد انتهائهم من المكتب ببلوغهم البلوغ الشرعي أو الانتهاء من حفظ القرآن، حيث يُقام لليتيم احتفال كبير يسمى (الإصرفه)؛ فيركبون الصبي على فرس أو بغلة مزينة ويسير بين يديه بقية صبيان المكتب ينشدون طوال الطريق، إلى أن يوصلوه إلى بيته، ويصرف له مبلغ من المال ليستعين به على معيشته بعد مغادرة المكتب، كما يصرف لمؤدبه مبلغٌ إضافيٌ على مرتبه؛ مكافأة له على جهده الذي بذله مع اليتيم الذي تخرج من المكتب[1].

وإن كان ما ذكر آنفًا يعبر عن مرحلة تأريخية امتدت حتى القرن العاشر الهجري فمما لا شك فيه أن هناك غير هذه الشواهد في فترات تاريخية متعددة، تؤكد وجود مثل هذه العناية والرعاية الاجتماعية للأيتام من خلال الأوقاف.

ولعل ما يلزم الإشارة إليه أن دار الأيتام القائمة حاليًا في المدينة المنورة تُعد من الأوقاف التي أنشأها حجاج القارة الهندية في عام (١٣٥٢هـ- ١٩٣٤م)، أي قبل أكثر من ثمانين عامًا لأيتام المدينة النبوية، حين كانت البلاد السعودية في بداية نشأتها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، فانظر كيف يؤدي الوقف إلى التواصل المجتمعي بين أطراف العالم الإسلامي؛ فالمسلمون في شبه القارة الهندية يوقفون دارًا لرعاية الأيتام في المدينة المنورة وهم على بعد آلاف الكيلومترات بحساب المسافات، ولكن حين يكون الأمر بحساب الإخوة الإيمانية، والروابط الإسلامية تتلاشى كل هذه الكيلومترات

(١) المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٣٤٤-٣٤٥.

وتضمحل المسافات بينهم[١].

وخلاصة القول فيما ذكر من جوانب عملية آنفة تجاه رعاية الأيتام والعناية بهم وتوفير حياة كريمة لهم مثل باقي أفراد المجتمع يدل على أن الوقف كان له دور كبير في سد ثغرة اجتماعية كان سيعاني منها المجتمع المسلم في حال إهمالها وهو حفظ هؤلاء الأيتام من أن يكونوا حجر عثرة في سبيل مسيرة المجتمع الإصلاحية أو العلمية، فضلا عن أن وجودهم بلا راع سيقودهم حتما إلى الانحراف الخلقي، وهذا يؤكد أهمية الوقف في علاج بعض المشكلات الاجتماعية في المجتمع التي ما كانت ستحل لولا وجود مثل نظام الوقف بحيويته، ومبدأه القائم على التعاطف بين أفراد المجتمع الواحد صغارًا وكبارًا.

ثانيًا: في مجال رعاية العجزة والمسنين:

لقد أدت الأوقاف دورًا مهمًا في تحقيق الرعاية الاجتماعية الشاملة للعجزة والشيوخ والضعفاء والفقراء والمنقطعين، كما أنشأت دورا للشريفات الفقيرات لتكون ملجأً لهن[٢].

إلا أن الشكل الأظهر في هذا هي دور الغرباء، فما من مدرسة يُنشئها الواقفون إلا ويوضع بجوارها بيت خاص للطلاب المغتربين، ويجري عليهم فيها ما يحتاجونه من غذاء، فبرزت تلك الحركة البشرية المتواصلة بين المدن والقرى في العالم الإسلامي، طلبًا للعلم في المدارس الوقفية، فلا يوجد ما يعوق طلب العلم، فالطرق قد أمنت بالأسبلة الوقفية، والمدارس قد تمّ تجهيزها بالغرف الخاصة بالغرباء، وقد تزايدت تلك الظاهرة بشكل واضح للعيان.

وقد أبدى الرحالة (ابن جبير) إعجابه الشديد بما لمسه في بلاد المشرق الإسلامي من عناية بالغرباء، ولاسيما إذ كانوا من طلاب العلم والمشتغلين به، فقال: إن هذه الظاهرة

---

(١) رعاية الأيتام في المملكة العربية السعودية، عبدالله بن ناصر السدحان، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤١٩هـ، ص ٨٢.

(٢) دور الوقف في التنمية، عبد العزيز الدوري، ندوة (أهمية الأوقاف الإسلامية في عالم اليوم)، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، لندن، ١٤١٧هـ، ص ٨٠.

ملموسة على نطاق واسع في بلاد المشرق عامة، وفي مصر خاصة، وأن هؤلاء الغرباء كانوا موضع رعاية الحكام الذين وقّفوا الأوقاف الواسعة على المرافق التي خصصوها لهم، ويصف ابن جبير هذه الأماكن وما يقدم لهم فيها فيقول: "إن الوافد من الأقطار النائية يجد مسكنا يأوي إليه، ومدرسًا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه... واتسعت عناية السلطان بهؤلاء الغرباء حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها.. ونصب لهم مارستانًا لعلاج من مَرِضَ منهم... ولقد عين لهم السلطان خبزتين لكل إنسان في كل يوم، حاشا ما عينه من زكاة العيد لهم"(١).

وحسبك من هذا أن صلاح الدين قد خصص للغرباء من المغاربة جامع ابن طولون في مصر يسكنونه وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر، وفي دمشق خصص السلطان نور الدين زنكي للمغاربة الغرباء زاوية المالكية بالجامع الأموي وأوقف على ذلك أوقافًا(٢).

أما الرُبط وهي الأماكن التي تمّ إعدادها على الثغور للمجاهدين وصد هجمات الأعداء فقد تحولت مع الوقت هي والخانقات والتكايا والزوايا إلى أماكن للمتفرغين للعبادة من الجنسين وإن كانت للذكور أظهر وأكثر، فكان ينقطع فيها من يرغب في التفرغ للعبادة، وقد كان لها دور كبير في تزايد عدد المجاورين في مكة المكرمة حيث خُصصت أربطة للعلماء وطلاب العلم، ويجري عليها الواقفون الجرايات اليومية من غذاء وكساء، وهذا النوع من الأوقاف ينتشر بشكل كبير جدًا في مدن العالم الإسلامي وقراه، ومع مرور الوقت غدت دورًا للضيافة، تستضيف المغتربين القادمين من أنحاء العالم الإسلامي، بحيث لا تزيد إقامة الضيف الوافد عن ثلاثة أيام، يلقى خلالها كل ترحاب من أهل الرباط ويقدم له الطعام وغيره من مستلزمات الضيافة.

---

(١) رحلة ابن جبير، مرجع سابق، ص ٢٥٨ وكذلك ص ١٦.

(٢) المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، مرجع سابق، ص٣٤٢، ص٣٦٦.

ومن يطلع على رحلة (ابن بطوطة) فسيجد أنه ما مرّ على بلدة، أو قرية، أو مدينة في البلدان الإسلامية التي زارها في رحلته إلا ويذكر مثل هذه الأربطة والزوايا، بل كان من المستفيدين منها وسكن في بعضها، ومما يؤكد تحول هذه الأربطة عن وظيفتها الأساس التي بدأت بها هو وجودها في أماكن بعيدة عن الثغور الإسلامية وحدودها الجغرافية مع الدول الأخرى التي كانت المهد الأول لظهورها[١].

ومع تطور الوقت تحولت بعض هذه الأربطة إلى ملاجئ مستديمة لفريق من الناس الذين يستحقون الرعاية، وخاصة أصحاب العاهات وكبار السن والعميان والمطلقات. وكان لهم عادة في توزيع المال والطعام.

ويذكر المقريزي عن رباط (بيبرس الجاشنكير) أنه مخصص لمائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت. كما أن السيدة (تذكار خاتون) شيدت رباط البغدادية سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، وأنزلت فيه مجموعة من النساء الخيرات ولهن شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن، وتطور الأمر بالرباط حتى أصبح يودع فيه النساء اللاتي طلقن أو هجرهن أزواجهن حتى يتزوجن، وظل هذا الرباط قائمًا حتى القرن التاسع الهجري[٢].

وهذا التحول التدريجي في دور الرُبط أدى بها إلى تحقيق رسالة اجتماعية، ذلك أنها غدت مأوى للغرباء والعجزة وضعفاء المجتمع، وجميع هذه المنشآت وجدت في نظام الوقف أكبر رافد مكنها من مواصلة رسالتها.

ولازالت بعض هذه الأربطة تؤدي هذه الرسالة في البعض من مدن العالم الإسلامي، ويمكن رؤية العديد منها في تلك المدن، إلا أن الشكل الأظهر في ذلك بلا منازع مدينتا مكة المكرمة والمدينة المنورة. وقد قامت إحدى الباحثات بحصر للأربطة في كل من مكة المكرمة

---

(١) الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري، علي منصور نصر شهاب، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة ١٦٩، الحولية الثانية والعشرون، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، ٢٠٠١م، ص٣٠.

(٢) المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٣٦٨.

والمدينة المنورة، وانتهت إلى وجود خمسة وسبعين رباطا في مكة المكرمة[١]، في حين يذكر أحد الباحثين وجود ستة وستين رباطا في المدينة المنورة[٢].

ولا يخفى أن ذلك لا يمثل الرقم النهائي؛ لعدة أسباب، أبرزها: وجود عدد من الأربطة التي لا تشرف عليها أية جهة حكومية أو خيرية، بل الإشراف فيها لأصحابها، أو أنها لم تسجل رسميًا، فضلا عن تزايد الأوقاف بعد هذه الإحصاءات.

ويؤكد بعض الباحثين أن الرباط المسمى (رباط السدرة) يُعدُّ أول رباط وقف في مكة المكرمة، كما يعتبر أول رباط وجد في مكة المكرمة يحمل اسم رباط، وكان يقع في الجانب الشرقي من المسجد الحرام بين باب السلام وباب النبي -ﷺ-. ويعود تأريخه إلى سنة (٣١٢هـ/٩٢٤م)[٣].

لقد أصبحت بعض هذه الأربطة في وقتنا الحاضر مأوى للعديد من العجزة، والمرضى، والمعاقين، وكبار السن، وأحيانًا العاطلين، أو مخالفي نظام الإقامة في المملكة العربية السعودية. وهذا ما أظهرته الدراسة التي قامت بها الجهة المختصة عن الأربطة في منطقة مكة المكرمة، ومنطقة المدينة المنورة. وشملت الدراسة قرابة (٧٠) رباطا في المنطقتين[٤].

---

(١) مجتمع الرِّبط: دراسة وصفية لأساليب الرعاية الاجتماعية في بيوت الفقراء بمدينة جده بالمملكة العربية السعودية، سعاد بنت عبود بن عفيف، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبدالعزيز، جده، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٦٠. ويختلف عدد هذه الأربطة من باحث إلى آخر؛ فبعضها يوصلها إلى أكثر من ذلك العدد بكثير، انظر: الأربطة بمكة المكرمة في العهد العثماني: دراسة تاريخية حضارية (٩٢٣-١٣٣٤هـ/١٥١٧-١٩١٥م)، حسين عبدالعزيز حسين الشافعي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٦هـ، ص ٣٧.

(٢) دور الوقف في تأسيس المدارس والأربطة والمحافظة عليها في المدينة المنورة، محمّد بن عبدالرحمن الحصين، مجلة جامعة الملك سعود (العمارة والتخطيط)، جامعة الملك سعود، الرياض، م ٩ ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ٩٣.

(٣) الأربطة في مكة المكرمة منذ البدايات حتى نهاية العصر المملوكي، حسين عبدالعزيز شافعي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٢٦هـ، ص ٣١.

(٤) الأربطة الخيرية في منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، وزارة العمل والشئون الاجتماعية (وكالة الوزارة للشئون الاجتماعية)، تقرير غير منشور، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هـ، ص ٣. وانظر صورًا لبعضها في ملحق رقم (٢)، صفحة رقم (٣٧٢).

ويوجد العديد منها مهجورة الآن، وستكون في حكم المندثر بسبب الإهمال الذي أصابها، إلا أن يتداركها الله برحمته، وقد قام بعض الباحثين بحصرها في مدينة جدة ووصف حال كل رباط من هذه الأربطة لمن رغب التفصيل فيها[١].

ولعل من أبرز الشواهد على كثرتها في المملكة العربية السعودية، وتزايد أثرها الاجتماعي هو صدور نظام خاص بها في المملكة العربية السعودية عام (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، أي قبل أكثر من سبعين عاما، ويحوي قرابة ثلاثين مادة تنظم عملها وطرق الإفادة منها[٢]، وهو منفصل عن النظام الخاص بالأوقاف في المملكة العربية السعودية.

ثالثًا: في مجال رعاية الفقراء والمعدمين:

من المؤكد أن الأوقاف باعتبارها صدقة جارية قد قامت بدور كبير في مجال الرعاية الاجتماعية والضمان الاجتماعي لعدد كبير من أفراد المجتمع المسلم، وبخاصة أن مساهمة السلطة الحاكمة في مجال الرعاية الاجتماعية تعد محدودة مكتفية بأريحية الموسرين، وأرباب الأموال تجاه الفقراء، فمما يسترعي الانتباه أن وثائق الأوقاف في غالبها تنص على مساعدة الفقراء والمحتاجين، بل إن هذا يُعد ركنًا أساسًا في الوقف، إلا أن المساعدات تكون بأشكال وأنواع مختلفة، فمن ذلك توزيع المساعدات النقدية، وأحيانًا أخرى العينية كالأكل، والملابس، والأدوات المعيشية، وبخاصة في أوقات الغلاء والأزمات المالية التي كانت تمر بها الأمة.

ومما يذكر في هذا المجال أن السلطان الظاهر بيبرس أوقف وقفًا لشراء الخبز وتوزيعه على المعدمين... وتجاوز الأمر إلى رعاية أولئك الفقراء حتى بعد وفاتهم ويكون ذلك بتحمل تكاليف تغسيلهم وتكفينهم ودفنهم، ومن أشهر هذه الأوقاف (وقف الطرحاء) الذي

---

(١) العمارة بمدينة جدة في العصر العثماني، عبدالله بن زاهر الثقفي، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، الجزء الأول، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ص ١٩٥.

(٢) مجلس الشورى، المملكة العربية السعودية، قرار رقم (٥٧) وتاريخ ١٣٥٢/٢/٢٦هـ.

جعله الظاهر بيبرس برسم تغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم[١].

ومن الأمثلة التي تُذكر لرعاية الفقراء اجتماعيًا من خلال الوقف ما ورد في وقفية الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامه المقدسي في فلسطين في القرن السادس الهجري حيث شملت أمورًا كثيرةً منها: "وقف للخبز يفرق فيها كل يوم ألف رغيف.. ووقف للأطعمة اليومية وهي أطعمة رتيبة ومنها الجريش في الشتاء.. وأضحية في العيد الكبير وحلوى في المواسم، ووقف زبيب قضامة كل ليلة جمعة وحلويات أخرى في الليالي الفاضلة من رمضان.. ووقف على قمصان توزع كل سنة"[٢].

ومن وجوه البر التي اهتم الواقفون بالصرف عليها من ريع أوقافهم كسوة العرايا والمقلين وستر عورات الضعفاء، والعاجزين، وإرضاع الأطفال عند فقد أمهاتهم، أو عجزهم عن إرضاعهم، ووفاء دين المدينين، وفكاك المسجونين المعسرين ورعاية أسرهم، وفك أسرى المسلمين العاجزين، وتجهيز من لم يؤد الحج من الفقراء لقضاء فرضه، ومداواة المرضى غير المقتدرين[٣].

وكان مما حدده السلطان المملوكي الأشرف شعبان لمصاريف أوقافه الضخمة أن جعل منها نفقات خيرية سنوية تشمل تأمين الإبر والخيوط للفقراء بمكة المكرمة[٤]، وكأنه بذلك يؤمن لهم عملًا دائمًا، أو ما يسمى في المصطلح المعاصر (الأسر المنتجة).

كما كان هناك أوقافٌ خيرية تنفق على أسر السجناء وأولادهم، حيث يقدم لهم الغذاء والكساء، وكل ما يحتاجونه لحين خروج عائلهم من السجن، كما وجدت

---

(١) المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، مرجع سابق، ص٣٤٢، ص ٣٤٦.

(٢) الوقف والمجتمع، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٣) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص ١٣٤-١٣٥.

(٤) أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، راشد بن سعد القحطاني، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٤هـ، ص ١٠٧.

مؤسسات وقفية لتجهيز البنات إلى أزواجهن ممن تضيق أيديهم، أو أيدي أوليائهم عن نفقات تجهيزهن[١].

ووجد في تونس وقفٌ مخصص ريعه لتزويج البنات الفقيرات واليتيمات[٢].

والأمر نفسه يتكرر في فلسطين، حيث وجدت أوقاف مخصصة لتجهيز الفتيات اليتيمات[٣].

ومن الأوقاف ذات البعد الاجتماعي والتي كانت موجودة إلى عهد قريب ما يسمى بـ(وقف قفة الخبز) وهو وقف خيري اجتماعي "وكان موقعه باطن بيروت وله دكان خاص، توضع فيه قفة مليئة بالخبز كل يوم جمعة، حيث يقصدها المعوزون والفقراء والمساكين القاطنون في بيروت من مختلف الطوائف فيوزع متولي القفة الخبز عليهم، فيأخذ كل منهم حاجته وينصرف دون سؤال أو إذلال، وقد كان لهذه القفة أوقافًا وأحكارًا عديدة وبعض العقارات والمخازن التي يعود ريعها للقفة، وقد سجلت هذه الأوقاف في سجلات المحكمة الشرعية في بيروت عام (١٢٥٩هـ/١٨٤٣م)"[٤].

ومن أجمل ما يرد في هذا المجال ما أوقفه صلاح الدين الأيوبي حينما جعل ما يسمى وقف الميزاب، حيث جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزابًا يسيل منه الحليب، وميزابًا يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات الفقيرات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجونه من الحليب والسكر[٥].

---

(١) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مرجع سابق، ج١، ص ١١٩.

(٢) الوقف في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٣٦.

(٣) سياسة إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين (١٩٤٨-١٩٨٨م)، مايكل دمبر، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٩.

(٤) التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٥) من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، الكويت، ١٤٠٠هـ، ص١٨١-١٨٢.

رابعًا: في مجال رعاية المسافرين والمغتربين اجتماعيًا:

لقد اتسعت رقعة العالم الإسلامي من مختلف الجهات الجغرافية، وامتدت أراضيه في ثلاث قارات، كما تعددت مراكز الحضارة ومواطن طلب العلم وأماكن التجارة فيه، فضلًا عن الرحلة السنوية بقصد أداء الحج، أو الرحلات المتتابعة لأداء العمرة، وزيارة المسجد النبوي؛ حيث ترتب على ذلك كثرة السفر والمسافرين وتكاثر من يغترب لتجارة، أو طلب علم، أو طلب رزق، كما نشأت خطوط يسلكها المسافرون تكاد تكون عامرة بهم طُوال العام.

وهذا الوضع الاجتماعي والاقتصادي اظهر لأصحاب المبادرات الخيرة من المسلمين حاجة مجتمعية، وميدانًا جديدًا للتنافس في مجال نفع الناس، يحدوهم في ذلك حديث المصطفى -عليه أفضل الصلاة والسلام- الذي يقول فيه: ((أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور يدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربه))[١]. ومن هنا أجاز الفقهاء بناء الخانات لأبناء السبيل، وجوزوا نزولها للفقير والغني على حد سواء[٢].

لذا نجد التسابق بين المحسنين في إيجاد منافذ خير جديدة يحتاجها الوضع الجديد وظروفه، فكان إنشاء الخانات -الفنادق- والرُبط للمسافرين، وعابري السبيل في طرق السفر وفي المدن وهي غير الخانات التي وجدت بمقابل مادي في بعض المدن الإسلامية الكبيرة والصغيرة على حد سواء، بل المقصود الخانات الخيرية، التي يوجد معها أو بجوارها حمام عام، وسبيل ماء، وأحيانا يكون معها الثلج وكان يسمى -جُمد- كل ذلك لتيسير الأمر على المسافرين. كما وجد بجوارها معالف، وأحواض ماء تكون خاصة بدواب المسافرين.

---

(١) المعجم الكبير، مرجع سابق، جزء١٢، ص ٤٥٣.

(٢) خدمات الوقف الإسلامي وآثاره في مناحي الحياة، رعد محمود احمد البرهاوي، دار الكتاب الثقافي، الأردن، ١٤٢٦هـ، ص ١٤٣.

ولعل المثال الأبرز في موضوع السقايات وتوفير المياه ما يُعرف بعين (زبيدة)، حيث نبعت فكرة إنشاء العين لدى السيدة (زبيدة)، زوج الخليفة العباسيّ هارون الرشيد، حين شعرت أثناء حجها بمدى العنت الذي يعانيه الحجّاج نتيجة شُح المياه في مكة المكرمة والمشاعر، فأمرت بإجراء عين وادي النعمان إلى عرفات سنة (١٧٤هـ/٧٩١م)، فوصل الماء زلالًا إلى عرفة ومزدلفة، وأصبح قريبًا من منى، فيما يُعرف ببئر زبيدة، وفي العصر العثماني، وتحديدا في عام (٩٧٩هـ/١٥٧١م)، قيّض الله كريمة السلطان سليمان خان السيّدة خانم سلطان لإعمار العين، فوجهت المهندسين والفنيين والبنائين وكانوا قرابة (١٠٠٠) شخص، من مختلف الدول الإسلاميّة لإعمارها، فتمّ مد القناة من بئر زبيدة إلى الأبطح، لتلتقي بمياه عين حنين، ثمّ إلى المعلاة، ثمّ إلى الحرم، ثمّ يتوزّع الماء في شبكة حجريّة داخل أحياء مكّة المكرّمة ليصب في ثلاثة وثلاثين بازانًا، منتشرة في مختلف أحيائها.

وظل هذا المشروع يسقي الحاج والمعتمر والمقيم والمجاور لمدة تربو على (١٢٠٠ عام)، يستفيدون منه وقوافلهم ودوابهم، عبر أحواض وبازانات وبرك. وما فاض عن حاجتهم وجهوه إلى مزارعهم، فاستفادوا منه فيما ينبت طعامهم وطعام دوابهم، وقد يقل الماء إذا شحّ المطر، ويكثر بطبيعة الحال إذا زاد[١].

أما في داخل المدن فقد كان السبيل -مساقي المياه- ملاصقا للمسجد ومرتبطًا به وظيفيًا، فيكون للوضوء، وكذلك للشرب؛ فيندر وجود مسجد بلا ماء سبيل، ولكن لأهميته ومسيس الحاجة إليه استقل مكانيا ولم يعد مرتبطًا بالمسجد وظيفيًا، وأصبح هناك سقايات للماء لا ترتبط مكانيًا بالمسجد، وعلى سبيل المثل تمّ إحصاء عدد الأسبلة في القاهرة عشية الحملة الفرنسية على مصر فبلغت (٢٦٦) سبيلًا، وقد تناقصت الآن ولم

(١) للمزيد من المعلومات عن عين (زبيدة)، يمكن الرجوع إلى: تطوير واستثمار أوقاف عين زبيدة لإعمارها وتشغيلها وصيانتها، عمر سراج أبو رزيزة، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ٩، السنة الخامسة، ١٤٢٦هـ، ص١٠٧.

يتجاوز عددها (٦٥) سبيلًا والذي يظهر أنها في سبيلها إلى الانقراض، وذلك عائد بطبيعة الحال إلى تطور شبكات المياه في عموم المدن[١].

أما في مجال الخانات والأربطة التي أعدت للمسافرين والمغتربين وعابري السبيل، فإن متتبع كتب الرحّالة الذين جابوا العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه يجد العجب مما يوردونه من صور عن هذه الخانات، وتلك الرُبط والحمامات وأسبلة المياه التي كانت منتشرة -وبشكل واسع جدًا- على مختلف مدن العالم الإسلامي، وقراه، وطرق سفره، وحتى مع احتمال المبالغة في تقدير ما يصفونه أو يشاهدونه؛ فإن إطراح جزء منه يجعل البقية محل تعجب من المستوى الحضاري الخيري المنتشر في العالم الإسلامي، ومن أبرز أولئك الرحالة (ابن بطوطة)، و (ابن جبير)، و (ابن حوقل)، والرحالة الفارسي (ناصر خسرو). ولكل واحد منهم رحلته المشهورة، كما أن كل رحلة من هذه الرحلات منشورة بتفاصيلها الدقيقة في كتاب مستقل.

ويصف ابن حوقل إحدى هذه الأربطة، التي مر عليها في أثناء رحلته بأرض خرسان قائلًا: "وهذا الرباط هو أجل رباط حسنًا في نفسه ونفعًا في موضعه لشدة الحاجة إليه في مكانه وكثرة ضرورة الناس إلى الاستغاثة والاستعانة به في المخاوف، وعند إناخة العدو والثلوج وتوقع المتالف، وهو حصين في ذاته منيع بعلوّه وسمكه، فسيح المباني واسع الأفنية لو نزل به عسكر لأقلهُ وملك عظيم لستر جيشه وأظله وأكنه.. وله من الجرايات التي على نزّالها والنفقات الدارة على سكانه من المتفقهة وطلاب العلم وقد أوقف عليه النفيس من الضياع ليقوم بمؤونته"[٢].

---

(١) قاهريات: أسبلة القاهرة، جمال الغيطاني، مكتبة مدبولي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٧. وللمزيد من المعلومات عن هذه الاسبلة يمكن الرجوع إلى كتاب: الاسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ١٥١٧م -١٧٩٨م، محمود حامد الحسيني، مكتبة مدبولي، بدون تاريخ.

(٢) كتاب صورة الأرض (رحلة ابن حوقل)، أبي القاسم بن حوقل، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ٣٧٨.

كما يصف الرحالة (ابن جبير) مآثر الوزير الموصلي ومنها أنه قام ببناء مسبلة في رباع مكة واختط لها صهاريج الماء ووضع جباب يستقر فيها ماء المطر، وأصلح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق من العراق إلى الشام إلى الحجاز "واستنبط الماء وبنى الجباب واختط المنازل في المفازات وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وجميع المسافرين، وابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء أبناء السبيل، الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية -الأجرة- وأجرى على قومة تلك الفنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم"[(١)].

ويتحدث (ناصر خسرو) عن بعض هذه الأربطة التي مرّ بها ونزلها مستفيدا من خدماتها وهي في قرية صغيرة قرب بيت المقدس تسمى (قرية العنب)، قائلا:"وفي قرية العنب هذه رأينا عينا عذبة تنفجر من الصخور، وقد بُني عندها إسطبل وبعض المنازل لراحة المسافرين"[(٢)].

وهناك غير ما ذكر الكثير والكثير، فقد عُرف عن بهاء الدين قراقوش المتوفي (٥٧٧هـ/١١٨١م)، أنه ابتنى خانًا للسبيل وكان ملحقًا به طاحونًا وساقيةً، كما قام السلطان المجاهد غياث الدين الغوري الذي حكم الهند وخراسان وتوفي عام (٥٩٩هـ/١٢٠٢م)، أنه بنى الخانات في العراق والصحاري في بلاده الشاسعة وأوقف عليها لتمويل خدماتها. كما بنى الملك الظاهر بيبرس سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م)، خانًا بالقدس لأبناء السبيل وأوقف عليه أراض زراعية في الشام والقدس لتمويل عملية المبيت

---

(١) رحلة ابن جبير، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٢) سفر نامه: رحلة ناصر خسرو القبادياني، أبي معين الدين ناصر خسرو القبادياني المرزوي، ترجمة: احمد خالد البدلي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٣هـ، ص ٥٢. و (ناصر خسرو) رحالة فارسي قام برحلته إلى مكة المكرمة، وحج عدة مرات خلال تلك الرحلة التي استمرت قرابة ست سنوات خلال الأعوام (٤٣٧-٤٤٣هـ)، الموافق (١٠٤٥- ١٠٥١م) انظر: مقدمة مترجم الرحلة، المرجع السابق، ص ٥-٢٢.

والطعام، حيث كان ملحقًا بالخان فرن وطاحونة، وكان فيه من يصلح نعال المسافرين وذلك ضمن الخدمات التي يقدمها مجانًا، كما كان ملحقًا به بستانٌ لتوفير الراحة النفسية والبدنية للمسافرين.

وهناك الكثير من النماذج من هذه الخانات، ومن المعروف أنها كانت تتفاوت في طبيعة الخدمات التي تقدمها وذلك وفق شروط واقفيها.

ويمكن أن نتصور مقدار الخدمة التي تقدمها والراحة التي يجدها المسافر إذا تصورنا تباعد المسافات وضعف وسيلة السفر التي لم تكن سوى الحيوانات، مما يستلزم معه أن يبقى المسافر أياما طويلة جدًا وهو في حال سفر وخوف، حتى يجد مثل هذه الخانات والخدمات.

إن كل هذه التسهيلات للمسافرين بمختلف أنواعها ساعدت وبصورة كبيرة على تيسير التنقل، وتأمين الطرق، وتنشيط عملية التحرك بين سكان العالم الإسلامي، حيث كانت أكثر من محطات استراحة فحسب؛ فقد كانت مكانًا للالتقاء، ومحطات للدلالة على الطرق للتجار والمسافرين.

ولا شك أن هذه العمليات الاجتماعية والاقتصادية تزيد من الترابط الاجتماعي والاقتصادي بشكل أو بآخر بين سكان العالم الإسلامي آنذاك، فضلا عن دورها في تمتين العلاقة القائمة على رابط الأخوة الإسلامية، كما ساعدت على انفتاح العالم الإسلامي على غيره من العوالم الأخرى والحضارات المختلفة.

خامسًا: في مجال الأرامل والمطلقات:

وهذا مجال آخر من المجالات التي تبارى فيها الواقفون لتخصيص أوقاف خاصة بفئة هي بأمس الحاجة إلى الوقوف بجانبها، ودعمها نفسيًا، واجتماعيًا، وماديًا.

وهي فئة الأرامل وهُن النساء اللواتي توفي عنهن أزواجهن[1]، يحدوهم في ذلك قول

---

(١) هذا هو المعنى في الاصطلاح وهو ما تعارف عليه الناس، ولكن معناها في اللغة اشمل؛ فهي تعني الضعف ورقة

المصطفى -ﷺ-: ((السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ كَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ)) (متفق عليه) [(١)]. ولقد كان رسول الله -ﷺ- حريصا على هذه الفئة؛ فيروي الإمام أحمد في المسند أن ابن عباس، قال: ((قَدِمَتْ عِيرٌ الْمَدِينَةَ فَاشْتَرَى النَّبِيُّ -ﷺ- مِنْهَا فَرَبِحَ أَوَاقِيَّ فَقَسَمَهَا فِي أَرَامِلِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)) [(٢)]. لذا نجد العناية بهن تصل إلى مستوى الحكام من بعده -ﷺ-، فهذا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ يخص النساء الأرامل بعناية خاصة فيروي البخاري أن "عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ خرج إِلَى السُّوقِ فَلَحِقَتْ به امْرَأَةٌ شَابَّةٌ فَقَالَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلَكَ زَوْجِي وَتَرَكَ صِبْيَةً صِغَارًا وَاللَّهِ مَا يُنْضِجُونَ كُرَاعًا وَلَا لَهُمْ زَرْعٌ وَلَا ضَرْعٌ وَخَشِيتُ أَنْ تَأْكُلَهُمْ الضَّبُعُ وَأَنَا بِنْتُ خُفَافِ بْنِ إِيمَاءَ الْغِفَارِيِّ وَقَدْ شَهِدَ أَبِي الْحُدَيْبِيَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَوَقَفَ مَعَهَا عُمَرُ وَلَمْ يَمْضِ ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِنَسَبٍ قَرِيبٍ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى بَعِيرٍ ظَهِيرٍ كَانَ مَرْبُوطًا فِي الدَّارِ فَحَمَلَ عَلَيْهِ غِرَارَتَيْنِ مَلَأَهُمَا طَعَامًا وَحَمَلَ بَيْنَهُمَا نَفَقَةً وَثِيَابًا ثُمَّ نَاوَلَهَا بِخِطَامِهِ ثُمَّ قَالَ اقْتَادِيهِ فَلَنْ يَفْنَى حَتَّى يَأْتِيَكُمْ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَقَالَ رَجُلٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَكْثَرْتَ لَهَا قَالَ عُمَرُ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى أَبَا هَذِهِ وَأَخَاهَا قَدْ حَاصَرَا حِصْنًا زَمَانًا فَافْتَتَحَاهُ ثُمَّ أَصْبَحْنَا نَسْتَفِيءُ سُهْمَانَهُمَا فِيهِ"[(٣)].

كما ثبت أنه كان يعتزم أن يخصص للأرامل عطاء خاصا من بيت المال؛ فعند البخاري في الصحيح أنه -ﷺ- قال قبل اغتياله بأربعة أيام: "لَئِنْ سَلَّمَنِي اللَّهُ لَأَدَعَنَّ أَرَامِلَ أَهْلِ

=

الحال بشكل عام. ويُقال للمرأة أرملة، وللرجل أرمل، ومنها قول جرير في عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: (هذي الأرامل قد قضَّيْت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر)، انظر: معجم مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ، ص ٤٠٣، مادة رمل.

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الساعي على الأرملة، حديث رقم ٦٠٠٦. وصحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، حديث رقم ٧٤٦٨، واللفظ للبخاري.

(٢) المسند، أحمد بن حنبل، دار الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ، مسند عبدالله بن عباس، حديث رقم ٢٠٩٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، حديث رقم ٤١٦٠.

الْعِرَاقِ لَا يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا قَالَ فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا رَابِعَةٌ حَتَّى أُصِيبَ"[١].

أما فيما يخُص المطلقات ففي الحديث الذي يرويه البخاري في كتابه الأدب المفرد قوله -ﷺ-: ((ألا أدلك على أعظم الصدقة، أو من أعظم الصدقة؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: بنتك المردودة إليك ليس لها كاسب غيرك))[٢]. والمردودة هي المرأة المطلقة[٣]، ويمكن اعتبار الزبير بن العوام -رضي الله عنه- أول من أوقف وقفًا خاصًا بالمطلقات، فعند البخاري في الصحيح أن الزبير بن العوام -رضي الله عنه- "تَصَدَّقَ بِدُورِهِ وَقَالَ لِلْمَرْدُودَةِ مِنْ بَنَاتِهِ أَنْ تَسْكُنَ غَيْرَ مُضِرَّةٍ وَلَا مُضَرٍّ بِهَا فَإِنْ اسْتَغْنَتْ بِزَوْجٍ فَلَيْسَ لَهَا حَقٌّ"[٤].

وهي وإن كانت خاصة ببناته فقط، ولكنه يعد أول من التفت إلى الأوقاف على المطلقات خاصة. وتوالى بعد ذلك الواقفون، فنجد هناك أربطة خاصة بالمطلقات فقط كما سنرى.

ومن هذا نجد من الواقفين من خصص أوقافه للأرامل فحسب، وهناك من خص هاتين الفئتين -الأرامل والمطلقات- بأوقاف خاصة للصرف عليهن أو إيوائهن وحفظهن، والعناية بهن؛ فيُروى أن صلاح الدين الأيوبي قد أوقف عددا من القرى في مصر لرعاية الأرامل وأيتامهن[٥]، كما أن السيدة (تذكار خاتون) شيدت (رباط البغدادية) سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) وأنزلت فيه مجموعة من النساء اللاتي طلقن أو هجرهن أزواجهن حتى يتزوجن، وظل هذا الرباط قائمًا حتى القرن التاسع الهجري[٦].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي -ﷺ-، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان رضي الله عنه، حديث رقم ٣٧٠٠.

(٢) الأدب المفرد، البخاري، تخريج وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، الجبيل، ١٤٢١هـ. باب فضل من عال ابنته المردودة، حديث رقم ٨٠.

(٣) لسان العرب، مرجع سابق، الجزء ٣، ص ١٧٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب إذا أوقف أرضا أو بئر واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين.

(٥) المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية مرجع سابق، ج٣، ص ٣٦٥.

(٦) المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٣٦٨.

ويظهر أن فكرة إنشاء مؤسسات خاصة لرعاية النساء من الفئات الخاصة بمصطلح اليوم انتشرت في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية على مر فترات التاريخ الإسلامي فكان هناك رباط في بغداد.. وفي مصر، وفي المغرب الأقصى، أوقاف فريدة في رسالتها الاجتماعية، وهي ملاجئ مؤقتة للنساء الأرامل، والمطلقات، أو الزوجات اللائي يقع بينهن وبين أزواجهن نفور وليس لهن أهل[١]. ويشير (الفاسي) إلى أن قهرمانة الخليفة العباسي (المقتدي) قد اوقفت رباطا يُسمى (الفقاعية) في مكة المكرمة في سنة (٤٩٢هـ/١٠٥٨م)، خصصته للأرامل من النساء فقط، وكان في الرباط من يقوم بخدمتهن والعناية بهن، مسكنًا ومأكلًا، وملبسًا، ورعاية[٢].

ولا شك أن فيما ذُكر بشأن الأرامل والمطلقات من العناية بهن ما يحفظ لهن كرامتهن، وقدرهن في المجتمع، إضافة إلى حفظ المجتمع ذاته من مفاسد عدة قد تحدث في حال تركهن دون رعاية، فضلا عن أن إحاطتهن بالعطف والحنان يعمل على التخفيف عليهن من مصيبتهن بفقد أزواجهن، وكاسبهن في هذه الحياة الدنيا. وهذا حس إنساني رفيع تميزت به الحضارة الإسلامية.

سادسًا: في مجال ذوي الاحتياجات الخاصة (المعوقين):

لقد أولى الإسلام عناية خاصة بهذه الفئة في المجتمع، وذلك انطلاقًا من تكريم الإسلام لجنس الإنسان عموما. يقول الله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٣]. فمهما يكن من حال الإنسان الصحية أو العقلية، فهو مُحاط بالتكريم لإنسانيته، وحسبك في هذا أن الله

(١) رعاية الفئات الخاصة، سلامة مُحَمَّد الهرفي البلوي، مكتبة الصحابة، الشارقة، ١٤٢٤هـ. ص ٢١.

(٢) خدمات الوقف الإسلامي وآثاره في مناحي الحياة، ص ١٥٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

ﷻ عاتب نبيه -ﷺ- عندما أعرض عن الصحابي الأعمى ابن مكتوم -رضي الله عنه- فنزل فيه قرآن يتلى إلى يوم القيامة. يقول الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١﴾[١].

إنه لا يوجد مجتمع يخلو من أعمى، أو معوق، أو مريض، أو مشلول، أو ناقص عقل أو فاقده بالكلية. ولقد وعد الله من أصيب بإحدى هذه العاهات بالأجر الجزيل؛ ففي الحديث أن رسول الله -ﷺ- قال: ((إِنَّ اللَّهَ قَالَ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ يُرِيدُ عَيْنَيْهِ))[٢]، وفي حال المصروع كذلك ورد أن الجزاء هو الجنة لمن صبر، ففي الحديث المتفق عليه أن ابن عباس قال للتابعي عطاء بن أبي رباح -رضي الله عنه-: ((أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْتُ بَلَى قَالَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي قَالَ إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ فَقَالَتْ أَصْبِرُ فَقَالَتْ إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ فَدَعَا لَهَا))[٣].

ولقد حرص المسلمون على مراعاة هذه الفئة الضعيفة في المجتمع فهذا عمر الفاروق يتعاهد امرأة عجوزًا في بيتها؛ فتورد كتب التاريخ أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- خرج في سواد الليل، فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتًا ثم دخل بيتًا آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا عجوز عمياء مقعدة. فقال لها: ما بال هذا الرجل الذي يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى[٤].

---

(١) سورة عبس، الآية: ١-١١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب فضل من ذهب بصره، حديث رقم ٥٦٥٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح، حديث رقم ٥٦٥٢، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب ثواب المؤمن فيما يُصيبه من مرض أو حزن، حديث رقم ٦٥٧١. واللفظ للبخاري.

(٤) تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي، مكتبة المؤيد، الطائف، ١٩٨٧م، ص ٨٦.

وقد سار على هذا المنهج من بعده غيره من الحكام، فهذا الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز يكتب للأمصار: أن ارفعوا إلى كل أعمى في الديوان، أو مقعد، أو من به فالج، أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة. فأمر لكل أعمى بقائد وأمر لكل اثنين من الزمن بخادم[١].

وكذلك الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة (٩٦هـ/٧١٤م)، يأمر بتخصيص قائد لكل أعمى مع راتب شهري يغطي نفقاته[٢].

ومع هذه الجهود المبذولة من ولي الأمر إلا أننا نجد هناك جهودا أخرى مدعومة من المؤسسة الوقفية لخدمة هذه الفئة؛ فقد وجدت أوقاف مخصصة لهذه الفئة المستضعفة. ففي إشارة إلى وجود وقف خاص بهذه الفئة (العميان) يشير (القزويني) إلى حدوث خلاف في عهد المأمون المتوفى سنة (٢١٨هـ/٨٣٣م)، بين القاضي المشرف على الوقف المخصص لمجموعة ممن فقدوا نعمة البصر وبين المستفيدين من الوقف وهم العميان، وإن كان المصدر لا يشير إلى طبيعة الخدمات التي كان يقدمها لهم، وهل هي مجرد نقود تدفع أم خدمات اجتماعية أخرى؟ كالمأوى أو الملبس والمأكل[٣].

كما أن صاحب إربل: أبو سعيد كوكبور المتوفى سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م)، قد ابتنى أربع خانقات للزمنى والعميان، وكان يزورهم يومي الاثنين والخميس ويمازحهم ويباسطهم.. وفي تونس كان هناك وقف (سيدي أبي العباس السبتي) مخصص للعميان والزمنى يأخذون كل يوم من ريعه ما يعيشون به، ذكورًا وإناثًا.. وفي فاس وجد قصر يسمى (دار الشيوخ) مخصص لتزويج المكفوفين وعليه أوقاف كثيرة[٤].

---

(١) عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين، عبدالستار الشيخ، دار القلم، دمشق، ١٤١٢هـ، ص ٣١١.

(٢) رعاية الفئات الخاصة، مرجع سابق. ص ٦٠.

(٣) خدمات الوقف الإسلامي وآثاره في مناحي الحياة، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٤) رعاية الفئات الخاصة، مرجع سابق، ص ٦١.

سابعًا: في مجال رعاية المرضى اجتماعيًا:

تُعد البيمارستانات[١] وهي التي تسمى في وقتنا المعاصر المستشفيات، أو المشافي، من الظواهر البارزة في تاريخ الحضارة الإسلامية في القرون الماضية، ومن المعلوم أن أساس نشأة هذه البيمارستانات هي الأوقاف بداية، وتطويرًا، وتعليمًا للعاملين فيها، وبرزت أسماء عديدة في هذا المجال، مثل: البيمارستان العضدي ببغداد، والبيمارستان النوري في دمشق[٢]، والبيمارستان المنصوري في القاهرة، وبيمارستان مراكش، والبيمارستان المقتدري. ويُقدم للمرضى في هذه البيمارستانات العناية الصحية وفق تنظيم مدهش، لفت انتباه كل من زارها، فبالإضافة إلى المأكل، والمشرب، والملبس الذي يقدم للمرضى برزت خدمات اجتماعية مصاحبة، ومن ذلك أنه تم تخصيص بعض البيمارستانات للفقراء دون الأغنياء، فيتم علاجهم دون مقابل، ومثل هذا كان في البيمارستان الذي أنشأه نور الدين زنكي في دمشق؛ حيث تمّ تخصيصه للفقراء دون الأغنياء، مما يؤكد الهدف الاجتماعي من إنشائه.

كما طالت يد الرعاية الاجتماعية لهذه البيمارستانات الفقراء في منازلهم، فقد نص السلطان قلاوون في كتاب وقفه البيمارستان الذي أنشأه على أن تمتد الرعاية الصحية إلى الفقراء العاجزين، ويصرف لهم ما يحتاجون من أدوية وأغذية، وقد بلغ عدد هذا الصنف من المرضى الذين يزورهم الأطباء في بيوتهم في فترة من الفترات أكثر من مائتي فقير[٣].

ومن الأدوار الاجتماعية التي كانت تؤديها بعض البيمارستانات رعاية المريض حتى

---

(١) بيمارستان كلمة فارسية مركبة من مقطعين (بيمار) ومعناها (مريض) و(ستان) ومعناها (دار) أي إنها تدل على دار المرض، وكانت بمثابة مستشفيات ومدارس للطب.

(٢) ويقع إلى الجنوب الغربي من الجامع الأموي بوسط دمشق، وقد تمّ تحويله من قبل الحكومة السورية إلى متحف باسم (متحف الطب والعلوم عند العرب)، عام (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م). انظر: صورًا له في الملاحق صفحة رقم (٣٨٣).

(٣) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص ١٦٩.

بعد خروجه، فيعطى ما يكفيه من معيشة حتى يباشر عمله الذي يتقوت منه، بالإضافة إلى كسوة، وهذا كان دارجًا في البيمارستان المنصوري، وتمتد رعايتهم للمريض حتى بعد وفاته، فقد نصت وثيقة الوقف على أن "يصرف الناظر ما تدعو الحاجة إليه من تكفين من يموت من المرضى والمختلين من الرجال والنساء فيصرف ما يحتاج إليه برسم غسله، وثمن كفنه، وحنوطه، وأجرة غاسله، وحافر قبره، ومواراته في قبره، على السنة النبوية والحالة المرضية"[١]. وفي ذلك يقول أحد الشعراء المعاصرين لذلك البيمارستان الذي شملت خدماته عموم الناس وغطى جميع جوانب الرعاية:

ولا تنس مارستانه واتساعه ... وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاته ... ورفقهم بالمعتفين ذوي الفقر
فللميت المقبور حسن جهازه ... وللحي رفق في علاج وفي جبر

ويذكر مصطفى السباعي في مجال الرعاية الاجتماعية والنفسية للمريض أنه وجد وقف مخصص ريعه لتوظيف اثنين من خارج المارستان يمران بالمارستان يوميًا فيتحدثان بجانب المريض حديثًا خافتًا ليسمعه المريض وهما يقصدان ذلك عن احمرار وجهه وبريق عينيه بما يوحي له بتحسن حالته الصحية[٢]، ولا يخفى أن لهذا أثره الفعال في نفسية المريض وسرعة شفائه. ومن غرائب الأوقاف في هذا المجال ما وجد في "مارستان سيد فرج ما عرف بوقف الموسيقيين الذين يؤدون لنزلائه مقطوعات تناسب طبائعهم، وأمزجتهم، وأمراضهم مرتين في الأسبوع، حتى تساعدهم على الشفاء واستواء الأمزجة"[٣].

واستكمالًا لحلقات الرعاية الاجتماعية للمرضى نجد أن الواقفين قد نصوا

(١) المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، مرجع سابق، ص٣٤٢، ص ٣٤٩-٣٥٣.
(٢) من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ٢٠٧.
(٣) حماية القاصرين في نظم الوقف ببلاد المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص ٥٠.

على أن أصحاب الوظائف الذين يعملون في المدارس التي أوقفوها حين إصابتهم بأمراض خطيرة أو معدية فإنه يجري عليهم رزقهم طوال فترة عزلهم عن الطلاب حتى يشفوا أو يتوفاهم الله[١].

وهذا يمثل نظامًا للضمان الاجتماعي، وقد يعد أساسًا لنظام التأمينات الاجتماعية، أو نظام التقاعد في وقتنا المعاصر، كما أنه يمثل قمة الإحساس بمتطلبات الرعاية الاجتماعية لأفراد المجتمع، وتلمس حقيقي لمواطن الاحتياج لديهم.

وختامًا لهذا المبحث الذي ذكرت فيه نماذج محدودة لدور الوقف في مجالات الرعاية الاجتماعية وقد جاء ذكرها للاستشهاد، ومنها يتضح الدور الكبير للوقف في مجال الرعاية الاجتماعية تمثل في رعاية الأيتام بشكل خاص والفقراء والمعدمين والغرباء والعجزة بشكل عام، ورعاية الأرامل والمطلقات، وذوي الاحتياجات الخاصة، كما أوجد رعايةً ذات بعد اجتماعي واضح في مجال الأربطة والزوايا، وشيئًا من هذه الرعاية الاجتماعية في المجال الصحي، وهذا الدور كان فعالًا وأثرّ بشكل كبير في تطور جانب الرعاية الاجتماعية في المجتمع، كما أدى الوقف عبر هذه المجالات إلى عدد من الآثار الاجتماعية في بنية المجتمع.

إن ما ذكر من أوقاف في المجالات الاجتماعية ينبئ عن حس مرهف لدى المسلمين، وحرص الواقفين على تلمس مواطن الاحتياج في مجتمعهم، وبطبيعة الحال أنهم لم يصلوا إلى هذه المرحلة من تلبية العديد من الجوانب الكمالية في حياتهم، إلا بعد أن تمَّ تأمين الجوانب الضرورية، والأساسية وفق واقع الحال وحاجاتهم الضرورية في ذلك الزمان.

وهذا ما يدعو إليه كل مهتم بالأوقاف، وهو ضرورة تلمس مواطن الاحتياج في المجتمع، والسعي إلى سدها، وعدم انتظار الحكومات لسد هذه الخلة الاجتماعية هنا، أو هناك،

---

(١) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص ١٧٧.

وبخاصة بعد تخفف كثير من الدول والحكومات عن تقديم مثل هذه الخدمات الاجتماعية بسبب العجز المادي لتلك الدول والحكومات أحيانا، أو بسبب الانشغال بقضايا ترى أن لها الأولية في مسيرتها الحضارية. وهذا الموضوع سيكون مدار الحديث في المبحث القادم بإذن الله.

الآثار الاجتماعية للأوقاف

من خلال هذه المجالات الاجتماعية السابق ذكرها، والتي كان للوقف دور بارز فيها، يمكن أن نورد بعض الآثار الاجتماعية التي تتبين في المجتمع المحلي الصغير، وكذلك في المجتمع المسلم الكبير بشكل عام، جراء هذه الأوقاف، أو التي كان للوقف دور في تعزيزها في حياة المجتمع وترسيخها على مدى القرون الماضية، ومن هذه الآثار ما يلي:

١. ساعد الوقف على تحقيق الاستقرار الاجتماعي وعدم شيوع روح التذمر في المجتمع عندما استطاع تحقيق نوع من المساواة بين أفراده، فقد تمكن الفقير من الحصول على حقه في التعليم، والعلاج، والاحتياجات الاجتماعية الأخرى في حال احتياجه لها، بالإضافة إلى المتطلبات الأساسية في الحياة من خلال نظام الوقف، بل إن بعض الأوقاف كان يخصص ريعها لفقراء المجتمع دون الأغنياء، وإن كان هناك من الباحثين من يشير إلى أن بعض الفقهاء قرروا أن الوقف على التعليم يستوي في الاستفادة منه الكبير والصغير والغني والفقير؛ فهو لكل طالب علم ولكنهم لم يجوزوا أن يخصص للأغنياء وحدهم[١]. لذا نجد بعض الباحثين في مجال الأوقاف من يصل إلى نتيجة اجتماعية على مستوى العالم الإسلامي هي أن "الآلاف الكبيرة من المجتمع من العلماء المبرزين في مختلف التخصصات كانوا من فئات اجتماعية واقتصادية رقيقة

(١) فضل الأوقاف في بناء الحضارة الإسلامية، أحمد أبو زيد، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، الدار البيضاء، العدد الثالث عشر، ١٤٢٠هـ، ص ٣٣٥.

الحال"[١]، وليس هذا فحسب؛ بل إن الأوقاف بهذه الطريقة أسهمت في عملية التنمية الاجتماعية الشاملة لما فيها من شيوع جو من المحبة، والتفاهم، والإخاء، والتكاتف، لإحساس الفرد المحتاج أن هناك من يهتم به ويأخذ بيده.

٢. تمكن نظام الوقف بما يمتلكه من مرونة من بسط مبدأ التضامن الاجتماعي وشيوع روح التراحم والتواد بين أفراد المجتمع وحمايته من الأمراض الاجتماعية التي تنشأ عادة في المجتمعات التي تسود فيها روح الأنانية المادية وينتج عنها الصراعات الطبقية بين المستويات الاجتماعية المختلفة، وهناك من يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية قد حمت مجتمعها من امتداد ثورة العمال التي برزت مع الثورة البلشفية في روسيا إلى المجتمع العمالي في الولايات المتحدة الأمريكية، من خلال التوسع في فتح أبواب العمل الخيري وتشجيع الشركات والأثرياء بإعفاءات كبيرة لمن يُقدْم منهم على الأعمال الخيرية فزادت المؤسسات الخيرية وتضاعفت الهبات حتى بلغت مئات الملايين في وقت مبكر من هذا القرن[٢]. كما أن في الوقف توزيعًا عادلًا في الثروات وعدم حبسها بأيد محدودة؛ مما يجعلها أكثر تداولًا بين الناس، لأن الواقف عندما يوصي بتوزيع غلة موقوفاته على جهة من الجهات، يعني توزيع المال على الجهة المستفيدة وعدم استئثار المالك به. ولئن كان لكل فلسفة في الوجود رؤية محددة للمال، فإن الإسلام له نظرته الخاصة إلى المال التي تميز بها عن كل الفلسفات والمذاهب؛ فالمال هو قوام الحياة، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾[٣]، فالسفهاء لا يجب أن يمكنوا من

(١) أثر الوقف في إنجاز التنمية الشاملة، شوقي أحمد دنيا، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، السنة السادسة عشر، ١٤١٥هـ، الرياض، ص ١٣٦.

(٢) الوقف الإسلامي وأثره في تنمية المجتمع، جمال برزنجي، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٣) سورة النساء، الآية ٥.

أموالهم، وينبغي أن يحال بينهم وبين أن يصرفوها في غير وجوه البر، وبما لا يعود بالنفع على المجتمع، لأن المال له وظيفة اجتماعية، وعلى الرغم من وجود اختلاف بين المفسرين في موضوع أموال السفهاء وملكيتها، إلا أن التفاسير تكاد تُجمع على أن المال له وظيفة اجتماعية حتى إذا أساء مالكه التصرف فيه، بات من الواجب على الجماعة المسلمة التدخل لتأخذ على يده، وتمنعه من التصرف، ولتنفق الأموال في الوجوه المشروعة التي تحقق مصلحة الجميع. وحتى يحقق المال هذه الوظيفة الاجتماعية، فإن الأحكام المالية المنبثقة عن النصوص الشرعية، وكذا التطبيقات العملية للسلف الصالح -رضوان الله تعالى عنهم-، كلها تلتقي عند نقطة جوهرية وهي وجوب تفتيت الثروة وعدم اكتنازها في طبقة معينة، وإنما لا بد من توزيعها على جميع أفراد الأمة توزيعا عادلا، بحيث يمس نفعها أكبر قدر ممكن من أفراد المجتمع الإسلامي[(١)]. يقول تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[(٢)]، وعلى ذلك كله فالنظام المالي الإسلامي قائم على تحقيق التوازن الاجتماعي، ومن هنا يأتي الوقف عاملا مهما لتحقيق هذا التوازن الاجتماعي.

٣. تعزيز روح الانتماء المجتمعي بين أفراد المجتمع وشعورهم بأنهم جزء من جسد واحد، تحقيقًا لحديث الرسول -ﷺ- الذي يقول فيه: ((تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ

(١) دور الوقف الإسلامي في إشاعة التراحم والإحسان على مستوى المجتمع الإسلامي، محمد دراجي، في (مؤتمر الشارقة للوقف الإسلامي والمجتمع الدولي)، الشارقة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢) سورة الحشر، الآية ٧.

وَالْحُمَّى))[١]. وهذا الشعور بالانتماء يشمل الطرفين الواقف والمستفيد من الوقف؛ فالواقف استشعر دوره المناط به في المجتمع وخصص جزءًا من ماله لسد حاجة من حاجات المجتمع. والمستفيد من الوقف يستشعر بعين التقدير مدى حاجته إلى الانتماء لجسد المجتمع الواحد الذي قام أثرياؤه بإسعاد فقرائه من خلال نظام الوقف، وهذا الشعور بالانتماء موضوع مهم لتحقيق الوحدة الوطنية في المجتمع الواحد.

٤. أدت الأوقاف دورا مهمًا في الانفتاح على المجتمع الخارجي للعالم الإسلامي من خلال تشجيع التجارة الداخلية، ومن ثَمَّ التجارة الخارجية وتهيئة سبلها وتسهيل وسائلها، فمن ذلك إقامة أحواض المياه المخصصة للدواب، وأسبلة المياه المخصصة للإنسان، والتي تقع على الطرق التجارية؛ فقد كان لها أثر مهم على الرواج الاقتصادي، وبخاصة إذا عرفنا مدى الحاجة إلى المياه بالنسبة للقوافل التجارية في ذلك الوقت، فضلا عن دور وكالات وخانات وحوانيت الأوقاف بالنسبة لبضائع التجارة الخارجية؛ فإنه من الثابت أن بعض الأوقاف —مثل وقف والدة السلاطين زوجة السلطان سليمان قد سمحت بنقل البضائع التجارية على سفنها المبحرة إلى الحجاز مما يقوي العلاقات التجارية بين مصر والحجاز.. فقد أدت هذه الأوقاف دورا مهما في التجارة الخارجية حيث نصت إحدى الوقفيات على رعاية الفنارات البحرية لهداية المسافرين "ومع أن الغرض -كما لا يخفى- من وراء ذلك هو تقديم خدمة إنسانية، إلا أنه لا يخفى مدى أهمية ذلك بالنسبة لتشجيع التجارة الخارجية والعلاقة مع عالم البحار والدول المطلة عليها"[٢]، ولقد أدى هذا الانفتاح العديد من المزايا للعالم الإسلامي، فمن ذلك التوسع التجاري

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم ٦٠١١.

(٢) الوقف وأثره التنموي، علي جمعة محمد، في ندوة (نحو دور تنموي للوقف)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٩٩٣م، ص١٢٢.

وفتح أسواق جديدة لمنتجات العالم الإسلامي، بالإضافة إلى نشر الدين الإسلامي، واللغة العربية من خلال التجار والتنقل بين الدول الأخرى كما حدث على سبيل المثال في جنوب شرق أسيا حيث دخلها الإسلام، ودخلتها اللغة العربية من خلال التجار، "فلقد كان لمعاملة المسلمين لغيرهم ومن ضمنها الأوقاف العامة؛ كالمدارس والمستشفيات ودور العجزة والجامعات التي استفاد منها من بقي على دينه من أهل البلاد المفتوحة الدور الأساس في نشر الإسلام في أكثرية دول العالم التي دخلها الإسلام، وخصوصا أواسط آسيا (أفغانستان، وباكستان، وبنغلاديش، وكازاخستان وأوزبكستان وقرقيزستان، وطاجيكستان، وتركمانستان، وبلاد التتر، وتركستان)، وجنوب شرق آسيا ومن ذلك: أندونيسيا، ماليزيا، الهند، تايلند، الفلبين، سنغافورة، حيث كان الوقف من أكثر الوسائل الناجعة التي يمكن أن يكون لها الدور الأساس في نشر الإسلام مستقبلًا، خاصة ونحن نعيش في عصر شوهت وطمست فيه المعالم المضيئة من ديننا، فلقد استطاع الغرب أن يسترد الكثير من المواقع التي خسرها مع المسلمين وذلك بقيامه بالدور نفسه الذي قام به المسلمون الأوائل؛ وهو الإنفاق والوقف على دعوة الناس إلى دينهم، حيث انطلقوا من كون الوقف يُعتبر من أقوى الوسائل لأنه يقدم للناس المثال الملموس الحي بعيدًا عن الوعظ والخطابة"[(١)]. وإضافة إلى كل ذلك فلا يخفى ما في ذلك التوسع الثقافي والديني من تقوية للأمة الإسلامية من خلال تكثير أتباعها على مستوى العالم، وهذا ما كان متحققًا إبان امتداد الحضارة الإسلامية في الكرة الأرضية في العصور الماضية.

---

(١) الوقف على غير المسلمين في ضوء المقاصد القرآنية، محمد إقبال أحمد حسن فرحات، في (مؤتمر الشارقة للوقف الإسلامي والمجتمع الدولي)، الشارقة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٥. أسهم نظام الوقف في الانفتاح المجتمعي بين أجزاء العالم الإسلامي، وقد وصف ابن خلدون في مقدمته هذه الظاهرة في وقت صلاح الدين الأيوبي بقوله: "فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والرُبط ووقفوا عليها الأوقاف المغلّة، فكثرت الأوقاف وعظمت الغلاّت والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها"[(١)]، كما أدى ذلك إلى الترابط بين سكان الحاضرة وبين سكان البادية، وانتقال الأفراد من مكان إلى آخر، ومن مدينة أو قرية إلى أخرى، أو ما يعرف في علم الاجتماع بظاهرة (الحراك الإيكولوجي) (Ecological Mobility)[(٢)]، وما يستتبع ذلك من ظواهر اجتماعية أخرى، وقد تحقق هذا بوجود المدارس الوقفية والبيوت الموقوفة لرعاية الغرباء، وإحياء طرق السفر بالخانات والأسبلة. كما استطاع نظام الوقف كسر عزلة القرية وفرض على أهلها ضرورة التواصل بينها وبين المدينة، وتعزيز مبدأ التوازن إلى حد كبير في عملية التحضر، وذلك من خلال الاهتمام بالمناطق الأكثر احتياجا، وكذلك بالفئات الأقل قدرة على سد ضروريات الحياة، وبخاصة في مجالات الصحة والتعليم والعمل والسكن[(٣)]. كما كان للأوقاف دور في الترابط بين المراكز الثقافية للعالم الإسلامي، وتنشيط حركة الأخذ والعطاء فيما بينها" فلقد أدت الأوقاف دورًا محوريًا في بناء بنية تحتية اجتماعية واقتصادية شكلت الأساس الموضوعي لقنوات التواصل بين العلماء المسلمين، وكانت الرافد الأساسي

---

(١) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: محمّد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٤٠٢-٤٠٣.

(٢) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٧١.

(٣) معالم التكوين التاريخي لنظام الوقف، إبراهيم البيومي غانم، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد التجريبي، عدد رقم (٠)، شعبان ١٤٢١هـ/نوفمبر ٢٠٠٠م، ص ٦١.

لإعادة إنتاج المعرفة الإسلامية حسب الزمان والمكان [١]. وفي ذلك تحقيق تنمية نهضة علمية واجتماعية شاملة في أرجاء البلدان الإسلامية بشكل عام.

٦. كانت الأوقاف تُمسكُ على المجتمع كيانه من الداخل فلا ينهار، من خلال الحفاظ على مقومات أية أمة وهما الدين، واللغة أو ما يسمى بهوية الأمة، فقد أدت الأوقاف دورًا محوريًا مهما في الحفاظ على الهوية الإسلامية والعربية بين أفراد الأمة، وعدم الذوبان في حومة الاستعمار أو الموجات التنصيرية والتغريبية، وكذلك محاولات محو اللغة العربية واستبدالها بلغة المستعمر، ولا يخفى أن هناك عدة موجات لمحو الهوية مرت على العديد من الدول الإسلامية، ولكن الأوقاف ومن خلال المدارس الإسلامية الوقفية ساندت -وبشكل جليّ- في حفظ الأمة على دينها ولغتها، على الرغم من المحاولات التي قام بها المستعمر لتحجيم الأوقاف والتضييق عليها، فقد حاولت موجات الاستعمار الغربي في العصور الحديثة -بعد أن سيطر على العديد من البلدان الإسلامية- أن تضغط على المسلمين عن طريق السيطرة على الأوقاف.. غير أن الوقف كان أحد العوامل الرئيسة التي استندت إليها الطبقة المتعلمة المسلمة التي وقفت ضد رغبات الاستعمار السياسي والفكري والديني من أجل الحفاظ على تماسك المسلمين في كثير من البلدان الإسلامية التي وقعت تحت هذه السيطرة الغربية.. ونشر الدعوة الوطنية القائمة على الإسلام، كما عمل الوقف على حماية سيادة الوطن في نفوس المواطنين، وذلك بنشر الثقافة الوطنية كاستجابة في وجه التحدي، وبناء المساجد والمعاهد العربية الإسلامية في مقابل هدمها أو تدجينها، ففي الهند عملت السلطات الانجليزية على ممارسة الدور الإضعافي للمدارس الوقفية، ولكن استمرار المقاومة الثقافية من خلال المعاهد

(١) عولمة الصدقة الجارية: نحو أجندة كونية للقطاع الوقفي، مرجع سابق، ص ٤١.

الإسلامية ومراكز التعليم الوقفية في كل من (عليكرة، وحيدر آباد) حدت من هذه الهجمة وقللت من أثرها، ويمكن القول نفسه في كل من اندونيسيا وماليزيا وغيرها من بلدان جنوب شرق أسيا، وكذا الأمر يتكرر في بلدان المغرب العربي، "فقد كانت المواقف الرافضة للاحتلال تعتمد على ما أتاحته موارد الموقوفات على المدارس والزوايا والتكايا والربط والمساجد.. فقد أدت تلك الوقوفات للثقافة الإسلامية وإلى اللغة العربية خدمات محمودة، فلولا موارد الوقوف المغربية التي عضدت الدراسات الإسلامية في بلاد المغرب العربي زمن الاحتلال الفرنسي لعفيت لغة القران وانطفأت شعلة الثقافة الإسلامية"[١].

٧. ساهمت الأوقاف بشكل مباشر في تكوين قيادات مجتمعية -بخاصة من العلماء- وقد كان لهذه القيادات المجتمعية دور بارز في مواجهة تسلط بعض الولاة في بعض البلدان والعصور، وكانت قوة هذه القيادات المجتمعية نابعة من اعتمادها على الأوقاف، ومن المعلوم أن الأوقاف وإدارتها تملك الشيء الكثير من الاستقلالية المالية والإدارية عن النظام الحكومي، ذلك "أن ولاية القاضي وحرمة شروط الواقف أعطت الوقف استقلاله عن السلطة الحكومية، ولهذا أخفقت المحاولات التي قام بها سلاطين وأمراء للسيطرة على الأوقاف أو استغلالها لمصلحتهم"[٢] ويفصل (ريتشارد فون لوفن) طبيعة هذه الاستقلالية في دراسة له بعنوان: (الأوقاف والبنى الحضرية: حالة دمشق العثمانية)، حيث ذكر أن العلماء أدوا أدوارا حيوية ومهمة جدا في حياة المدينة بعيدا عن تأثير أو نفوذ الدولة العثمانية

---

(١) الوقف وأثره التنموي، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٢) مستقبل الوقف في الوطن العربي، عبد العزيز الدوري، في ندوة (نظام الوقف والمجتمع المدني في الوطن العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٧٩٥.

المباشر، وكان لهم تأثير كبير في حياة الناس[١]. وهذه الاستقلالية الإدارية والمالية أوجدت بيئة داعمة لإيجاد تلك القيادات المجتمعية التي وقفت في مواجهة تسلط بعض الولاة أو انحرافاتهم، وهذا بدوره يعمل على تكوين رأي شعبي مؤثر على المدى الواسع والبعيد، لذا ليس من المستغرب أن نجد من أولويات المستعمر في كثير من الدول الإسلامية التي يصل إليها العمل على إضعاف دور الأوقاف كما ذكر في فصل سابق، وقد كان ذلك من خلال التضييق عليها، أو منعها بالكلية كما حصل في بعض دول المغرب العربي، وهذا الاستقلال الإداري والمالي ساعد بدرجة كبيرة على إيجاد رأي مستقل للعلماء، أو ما يسمى بالقيادات المحلية في المجتمع، "فالحرية العلمية والقوة في قول الحق أسبابها قوة الإيمان والإخلاص، وأعان عليها في بعض الأحيان عدم حاجة العلماء إلى السلطة، ومن أسباب هذا الاستغناء توافر الأوقاف لهم، ولهذا حرصت بعض الأنظمة السياسية في العصور المتأخرة في بعض البلاد الإسلامية على مصادرة الأوقاف والسيطرة عليها والتحكم فيها"[٢].

٨. بسط رواق الأمن في المدن والبلاد بشكل عام وذلك من خلال تأمين فرص عمل لقطاع كبير من فئات المجتمع العاطلين عن العمل، أو الباحثين عنه، وليس بخاف التلازم الكبير بين التعطل عن العمل وبين زيادة نسبة الجريمة، وهذا ما تظهره العديد من الدراسات العلمية، ولا عجب في ذلك "فالعمل هو المحرك الأساس للإنسان كي يعيش ضمن قواعد ونظم اجتماعية تؤمن له الاستقرار الاجتماعي

---

(١) تحولات علاقة الوقف بمؤسسات المجتمع المدني في بلدان شبه الجزيرة العربية، أبو بكر احمد باقادر، في ندوة (نظام الوقف والمجتمع المدني في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٧٤٧.

(٢) الأثر الثقافي للوقف في الحضارة الإسلامية، عبدالله بن عبدالعزيز الزايدي، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ١١، السنة السادسة، ذو القعدة ١٤٢٧هـ، ص ٩٨.

والاقتصادي، فحرمانه من هذا المحرك والباعث يجعله في أحيان كثيرة يفقد شعوره بالانتماء الاجتماعي وتتولد في نفسه مشاعر الإحباط والفشل، بالإضافة إلى حرمانه من المورد المادي الذي يجعل منه إنسانا غير سوي من خلال سلوك غير سوي"[١]. وهذه الحال غير السوية هي التي عمل نظام الوقف على التخفيف منها إلى حد كبير من خلال خلق فرص عمل كبيرة ومتنوعة، فلقد كان للأوقاف آثار مباشرة وغير مباشرة في إيجاد مجموعة من الوظائف المختلفة ليؤدي الوقف دوره ومن تلك الوظائف الدينية والتعليمية مثل: إمام المسجد والمؤذن والمعلم في المدارس الوقفية الكثيرة فقلد كانت العدد في بعض الوقفيات يصل إلى خمسة أئمة، وكذا من المؤذنين، أما المعلمون في المدارس فهم بالعشرات في المدرسة الوقفية الواحدة، إضافة إلى عدد كبير من الوظائف الفنية والمعمارية، بالإضافة إلى تزايد صناع الورق والنساخ بسبب كثرة الوقف على الكتب والمكتبات، كما أسهم الوقف بطريقة مباشرة في تشغيل الأيدي العاملة عن طريق استثماراته، سواء أكان الاستثمار عقاريًا في بناء أسواق تجارية وإقامة مساكن للفقراء، أم استثمارا زراعيا أم غيرها[٢].

٩. أسهم الوقف في توسيع قاعدة الطبقة الوسطى (Middle Class) في المجتمع المسلم وهذه الطبقة هي "فئة من السكان في نظام التدرج الطبقي بالمجتمع وتقع بين الطبقتين السفلى والعليا، ويتمتع أفراد هذه الطبقة بقسط مناسب من الدخل والتعليم.. وتتميز القيم السائدة بين أفراد هذه الطبقة بتقدير المسؤولية واحترام الذات

---

(١) البطالة والسلوك المنحرف، بثينة توفيق الرجب وآمال عبدالرحيم، مجلة شؤون اجتماعية، جمعية الاجتماعيين والجامعة الأمريكية بالشارقة، الشارقة، العدد ٧٤، ٢٠٠٢م، ص ٢٢.

(٢) انظر في ذلك: أثر الوقف في التنمية الاقتصادية والاجتماعية مع دراسة تطبيقية للوقف في اليمن، عبدالعزيز علوان سعيدعبده، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ١٢٧ وما بعدها.

والعمل الجاد"[١]، والطبقة الوسطى هي لحمة أي مجتمع بشري وأوسعها ثقافة وتعليما، ومنها يتخرج الأطباء والمهندسون والمعلمون، وسائر القيادات التنفيذية في مختلف دوائر الدولة، والغالب أن تناقص هذه الطبقة في أي مجتمع قد يؤدي بالمجتمع إلى التخلف الثقافي والحضاري، لذا تعمل سائر الحكومات في الدولة الحديثة على توسيع دائرة الطبقة الوسطى والمحافظة على وجودها وبقائها، وذلك بما توجهه من نفقات عامة لزيادة الدخول المادية لهذه الطبقة؛ حفاظا على وحدة وتماسك المجتمع وتنمية الشعور والحس والانتماء الوطني، إن الطبقة الدنيا (المعدمة) (Class Lower) في أي مجتمع هي طبقة في الغالب تكون ناقمة أو ساخطة على أوضاعه وتنظيماته، لاهثة وراء لقمة العيش لا يهمها من أمر مجتمعها إلا الحصول على ضرورات الحياة، في حين نجد أن الطبقة المترفة أو العليا (Upper Class) في أي مجتمع غالبا أنه لا تُعني إلا بما يحقق مصالحها واستمرار ترفها، فهاتان الطبقتان ينعدم أو يضعف لديهما الانتماء الوطني والحافز على التعليم والثقافة والاندماج في المجتمع، في حين نجد أن الطبقة الوسطى في المجتمع على العكس من كل ذلك، فهي التي ترسخ الأعراف الاجتماعية، وتتمسك بها وهي التي تدافع عن الوطن وتحمي مقدساته، وهي التي تتكون منها القيادات التنفيذية لهيئاته ومؤسساته، وقد ساعد الوقف الإسلامي كثيرًا في توسيع دائرة هذه الطبقة، وكان أحد أسرار تماسك المسلمين وتمسكهم بعقيدتهم ودفاعهم عن أوطانهم، رغم الهجمات الشرسة المتعاقبة من أعدائهم[٢]، وليس هناك ثمة مغالاة إذا قيل: إن الوقف قد شارك وبشكل فعال في توسيع دائرة الطبقة المتوسطة في المجتمع بشكل

---

(١) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٢) نماذج مشرقة من إسهامات الوقف الإسلامي في تعزيز الروابط الحضارية والمعرفية بين المسلمين والتواصل مع المجتمع الدولي، محمّد بن أحمد الصالح، في (مؤتمر الشارقة للوقف الإسلامي والمجتمع الدولي)، الشارقة ١٤٢٦هـ.

واضح وملموس.

١٠. ظهور أنماط وتقاليد اجتماعية جديدة جراء وجود وظائف مهنية مرتبطة بنظام الوقف، وهذه امتداد للأثر السابق الذي أوجد أنماطًا جديدة في بعض الأحيان من العمالة، فمن خلال نظام الوقف بأنواعه وجدت وظائف جديدة في المجتمع واستتبع ذلك إيجاد تقاليد وأعراف خاصة بها أصبحت مع مرور الوقت جزءًا من ثقافة المجتمع ونظامه الإداري، ويعدد أحد الباحثين عددًا من الوظائف المرتبطة بالوقف كان يشترطها الواقفون مثل: (البرددارية وهو الذي يتولى بريد الأوقاف، المعمارية، شاهد العمارة، المرخمين، ناظر الوقف، المباشرين، الشادية، المشارفة، الصيرفي، الجابي، الترقية، الشاهد) وبعض هذه الوظائف قد تكون موجودة في المجتمع أصلًا، إلا أن ارتباطها بالأعمال والأعيان الوقفية جعل لها طابعًا خاصًا يختلف عن غيرها من الأعمال، ومثل هذه الحرف وتقاليدها توجد تقاليد ثابتة في المجتمع، بل كانت شروط الواقفين أساسًا لنشأة كثير من التقاليد في المجتمع[١] وتندرج ضمن ما يسمى بالثقافات الفرعية أو الثقافات الخاصة في المجتمع ولها كل مكونات الثقافات الفرعية في علم الاجتماع، وهذه الثقافة الفرعية وإن كانت تستمد أصولها من الخط الثقافي العام للمجتمع وترتبط به ارتباطًا عامًا، إلا أنها تختلف عنه في كثير من الجزئيات، وتتنامى مع الزمن لتكون خليطا من الثقافات على المدى البعيد في أي مجتمع.

١١. إن الدارس للأثر الاجتماعي للوقف لا بد أن تستوقفه نوعية الطبقة الاجتماعية التي استفادت بشكل الوقف وكيف استطاع تغييرها وتحقيق ما يسمى في علم الاجتماع بظاهرة (الحراك الاجتماعي) (Social Mobility) في بنية المجتمع.

---

(١) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص٣٧٤.

والحراك الاجتماعي يقصد به "انتقال الأفراد من مركز إلى آخر ومن طبقة إلى أخرى، وقد يكون هذا الانتقال أفقيًا وهو تحرك الأفراد من مركز اجتماعي إلى آخر في الطبقة نفسها... وقد يكون رأسيًا وهو انتقال الأفراد من طبقة اجتماعية إلى طبقة اجتماعية أعلى"(١) ولقد مكّن التعليم القائم على نظام الوقف، وكذلك الرعاية الاجتماعية الوقفية من تغير طبقات المستفيدين منه أفقيًا ورأسيًا وفق مفهوم الحراك الاجتماعي، فساعد نظام الوقف على تحسين المستويات الاقتصادية، والعلمية، والثقافية لكثير من أفراد المجتمع، "فالتعليم الجيد الذي قد يحمله شخص موهوب قد ينقله ليس إلى أن يتسلم مرتبة الإفتاء والقضاء فحسب، بل لأن يتمرس في العمل الإداري وتيسير أمور الدولة أو في أية مهنة متخصصة كالطب أو الإدارة أو غيرها والتي قد لا تتاح له لولا أن أموالًا موقوفة قد ساعدته على هذا الارتقاء، وسهلت له سبيل التعليم والانتقال والارتقاء"(٢). ولعل من أبرز الشواهد على هذا الأمر ما حدث لكل من (ابن الدبيثي) و(أحمد بن أبي بكر بن علي) وهذا الأخير هو أحد الذين كتبوا تاريخ ابن كثير. فهؤلاء كانوا في مهن محدودة ولكن وجدوا فرصتهم من خلال مجانية التعليم عبر المدارس الوقفية، وقدرتهم على طلب العلم والتفوق فيه ليصلوا إلى ما وصلوا إليه من مراتب علمية.

١٢. يمكن النظر إلى أثر نظام الوقف في المجتمع على اعتبار أنه يسهم –وبشكل فعال وغير مباشر– في القضاء على العديد من المظاهر السلبية في المجتمع، ومن ذلك على –سبيل المثال– التخفيف من ظاهرة التسول والاستجداء في المجتمع؛ فالأراضي

---

(١) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص٢٧١.

(٢) الدور الاجتماعي للوقف، عبدالملك أحمدالسيد، في ندوة (إدارة وتثمير ممتلكات الأوقاف) تحرير: حسن الأمين، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، ١٤١٥هـ، ص ٢٥٦.

الزراعية التي كانت توقف أو تؤجر بأجر يسير على الفلاحين المعدمين، يكفيهم بالجملة مؤونة السؤال والحاجة، ويساعدهم على تعليم أولادهم، ويفصل أحد الباحثين في أثر هذا الدور في كل من مصر والسودان ويستجلي نتائج هذه الطريقة في استغلال الأوقاف وعملها مع صغار المزارعين في كل من الدولتين بشكل مفصل[١].

١٣. لقد كان لنظام الوقف ومصارف غلالها الدور الكبير في تعزيز الجانب الأخلاقي والسلوكي في المجتمع، من خلال التضييق على منابع الانحراف، فقد كانت توجد العديد من الأوقاف لرعاية النساء اللاتي طلقن أو هجرهن أزواجهن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن صيانة لهن وللمجتمع ويكون ذلك بإيداعهن الرُبط، حيث ينقطعن عن الناس، وفيها من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات، وتؤدب من خرجت عن الطريق بما تراه، وتُجرى عليهن الأرزاق من الأوقاف[٢]. فتنقطع حاجتهن التي قد تلجئهن إلى سلوك دروب الانحراف بسبب الحاجة، وهذا يؤكد أن الرباط -وهو جزء من نظام الأوقاف- غدا مؤسسة لها اعتبارها الاجتماعي، وتؤدي وظيفة اجتماعية معتبرة، وهي ممارسة الضبط الاجتماعي (Social Control)، ويمثل الضبط الاجتماعي من وجهة نظر المنظومة الاجتماعية "مختلف القوى التي يمارسها المجتمع للتأثير على أفراده من عرف وتقاليد وأجهزة يستعين بها على حماية مقوماته والحفاظ على قيمه ومقوماته"[٣]،

---

(١) التكوين الاقتصادي للوقف في بلدان وادي النيل، محمد محمد شتا أبوسعد، في ندوة (نظام الوقف والمجتمع المدني في الوطن العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٣٦٦.

(٢) المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية مرجع سابق، ج٣، ص ٣٦٨.

(٣) نموذج لاستراتيجية الضبط الاجتماعي في الدول العربية، محمد صفوح الأخرس، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ١٩٩٧م، ص ١٩.

ولاشك أن تلك النتائج الضبطية التي ظهرت في المجتمع من قبل جانب من جوانب نظام الوقف جزء من تلك المنظومة الاجتماعية التي يشير إليها التعريف السابق، حيث من المسلم به أن "القوة في ممارسة السلطة ليست هي العامل الوحيد لتحقيق الضبط الاجتماعي، حيث يوجد العديد من العوامل المتداخلة المرتبطة بالضبط الاجتماعي، فالإنسان والحياة الاجتماعية أمور معقدة مركبة لا يمكن أن يؤثر عامل واحد عليها ويطبعها بطابعه، ولكن تجتمع مجموعة عوامل تؤثر في السلوك الإنساني"[١] ومن تلك المؤثرات –ولاشك– الممارسات المرتبطة بنظام الوقف.

وقد وجدت أوقاف خاصة لتخليص السجناء ووفاء ديونهم، وفكاك أسرى المسلمين، وممن اهتم بهذا القاضي الفاضل عبدالرحيم ابن القاضي الأشرف أبي الحسن علي بن الحسن اللخمي المتوفى سنة (٥٩٦هـ/١١٩٩م) إذ خصص وقفًا عظيمًا على فكاك الأسرى"[٢]، وكذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أوقف مدينة بلبيس على فك أسرى المسلمين الذي أسرهم الصليبيون في حملتهم على مصر، سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م)[٣]. كما وجدت أوقافًا خيريةً أخرى تنفق على أسر السجناء وأولادهم، حيث يقدم لهم الغذاء والكساء وما يحتاجونه من أمور، وعلاوة على الصرف على المساجين وعوائلهم من ريع الأوقاف كان هناك بعض الأوقاف مخصصة للصرف على الفقهاء بشرط أن يقوموا بإمامة المساجين

---

(١) الضبط الاجتماعي: مفهومه وأبعاده والعوامل المحددة له، سليمان بن قاسم الفالح، بدون ناشر، ٢٠٠٣م، ص١٩١.

(٢) الوقف والمجتمع: نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص ٦٠. وانظر تفصيل أكثر في: فك الأسرى الأندلسيين من دار الحرب، خالد بن عبدالكريم البكر، مجلة الدرعية، الرياض، العدد ٢٩، الرياض، ١٤٢٦هـ.

(٣) تاريخ الوقف عند المسلمين وغيرهم، احمدبن صالح العبد السلام، في ندوة (الوقف في الشريعة الإسلامية ومجالاته)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٢٣هـ، الجزء الأول، ص ٥٩٦.

أوقات صلواتهم، وأن يُدرسوا ويفقهوا السجناء ويقودونهم في حياتهم العملية ليخرجوا من السجن وقد أتقنوا علمًا من العلوم أو حرفة من الحرف. بل كان هناك من يهتم بتنمية ثقافة نزلاء السجون ليندمجوا من جديد في مجتمعهم بعد إطلاق سراحهم فقد خصص بعض المسلمين أوقافا للعلماء المسلمين لكي يزوروا السجون ويعلموا المساجين المعارف والعلوم ما يساعدهم على البدء من جديد حياة أخرى غير السابقة بعد خروجهم من السجن[١]، وهذا ما يسمى في الوقت الحاضر بـ (الرعاية اللاحقة) (After Care)، وهي: كل جهد يُبذل للمجرم أو لأسرته أثناء العقوبة أو بعد تنفيذها؛ لضمان عدم انحراف أسرته، أو أحد أفرادها، وعدم عودته إلى الإجرام مرة أخرى.

١٤. شيوع روح التراحم والمعاملة بالحسنى بين أفراد المجتمع، وهذا يؤدي إلى مزيد من التماسك المجتمعي، إضافة إلى كون الوقف من جانب آخر "أداة للتنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي وذلك عبر الممارسة الأهلية الحرة لما يُعرف في فقه الوقف بشروط الواقف فقد قام الواقفون بتوظيف تلك الشروط لممارسة نوع من الضبط الاجتماعي على المستحقين من ريع أوقافهم، وذلك بوضع شروط تدعم قيما اجتماعية وسلوكية وأخلاقية معينة، وتمنع وتحرم قيما سلبية، ولعل أهم دور قام به الوقف في هذا المجال هو غرس وتوارث مبدأ المسؤولية الاجتماعية والمحافظة على قواعد النظام العام وصيانة الآداب الاجتماعية"[٢]، كما تتضح معالم ذلك الأثر الاجتماعي ويتضح ذلك في أثر الوقف الاجتماعي بشكل عام لشعور الفئة المستفيدة من الوقف برحمة الآخرين لهم، بالإضافة إلى اشتراط الواقف صفات

---

(١) دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص ٨١.

(٢) الأوقاف والسياسة في مصر إبراهيم البيومي غانم، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٥٩.

خاصة فيمن يباشر صرف غلة الوقف، وبخاصة في الأسبلة، حيث يرد في الوثائق الوقفية أن يعامل متولي توزيع المياه من السبيل الناس بالحسنى والرفق ليكون أبلغ في إدخال الراحة على الواردين، وهذا الشرط أصبح من التقاليد المرعية في الوثائق الوقفية في العصر المملوكي. ففي إحدى الوثائق الوقفية نجد هذه المواصفات في العاملين والقائمين على وقفية من الوقفيات "إن يكون رجلًا صالحًا دينًا.. طلق الوجه عذب اللسان رقيق القلب شفيق الجنان"(١). ولا شك أن هذه القيم الأخلاقية موجودة في المجتمع، ولكن مثل هذه الشروط الوقفية تعمل على تعزيزها بطرق مباشرة وغير مباشرة، وبخاصة إذا علمنا ضخامة الأوقاف في العصور السابقة. والأمر نفسه يتكرر في شروط الواقفين مكاتب تعليم الأيتام حيث اشترطوا العديد من الشروط الأخلاقية فيمن يتولى الإشراف على هذه المكاتب، أو التعامل مع الأيتام، ومن ذلك ما نجده في وثيقة وقفية حيث ورد النص الآتي حول تدريس الأيتام: "ويعلمهم الفقيه ما تيسر لكل منهم تعلمه من القرآن والخط والهجاء والاستخراج أسوة بأمثالهم على العادة ... ويعاملهم المؤدب بالإحسان والتلطف فيما يرغبون به في الاشتغال ومن أتى منهم بما لا يليق أدبه بفعل ما أباحه الشرع الشريف ولا يضرب الضرب المبرح"(٢). إن تكرار مثل هذه الاشتراطات، وبخاصة إذا تصورنا حجم الأوقاف من جانب وتقارب المجتمعات من جانب آخر يمكننا من تصور مقدار ما تمثله من أثر فعال على المدى الزمني على مستوى التعاملات بشكل عام وهذه الفئات التي ترد في الوثائق الوقفية بشكل خاص.

---

(١) الخدمات والمرافق العامة في مكة المكرمة في العهد العثماني، ماجدة صلاح مخلوف، ضمن الندوة العلمية الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة لعام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٦هـ، المحور الثاني، ص١٧٧.

(٢) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص٢٦٩.

١٥. أسهمت الأوقاف بشكل واضح وجلي في تحقيق ترابط اللبنة الأولى للمجتمع وهي الأسرة، وذلك من ثلاثة جوانب:

الأول: من خلال ما يسمى بالوقف الأهلي أو الوقف الذري وهو ما كان على الأولاد والأحفاد والأسباط والأقارب ومن بعدهم من الفقراء، ويقوم على أساس حبس العين والتصدق بريعها على الواقف نفسه، وذريته من بعده، أو غيرهم بشروط يحددها الواقف، فمن خلال هذا النوع من الوقف كان يحدث لم الشمل للأسرة. فنظام الأسرة مستوعب بشكل كامل داخل نظام الوقف، كما أن نظام الوقف ذاته معتمدٌ من الناحية الاجتماعية على نظام الأسرة، ومن ثَمَّ فالعلاقة بينهما علاقة تعاضدية.

أما الجانب الثاني: فهو مساعدة الشباب والفتيات العوانس على الزواج وبخاصة الفقراء منهم، وقد كانت هناك أوقاف مخصصة لذلك.

والجانب الثالث الذي يحقق تماسك الأسرة وترابطها؛ فهو من خلال إيجاد أوقاف خاصة برعاية النساء المتزوجات الغاضبات، اللواتي لا أسر لهن، أو تكون لهن أسر في بلاد بعيدة، فتؤسس لهن دور تقوم على رعايتها نساء، على رأسهن مشرفة تهيئ الصلح للزوجات الغاضبات مع أزواجهن[(١)]، فغدت وكأنها مكاتب لإصلاح ذات البين، أو مكاتب للتوجيه والإرشاد الأسري المعروفة حاليا، والتي يمارسها المختصون في مجال الخدمة الاجتماعية والإرشاد الزواجي.

١٦. لقد كان لنظام الوقف دور فاعل في تحقيق درجة عالية من الترابط بين أفراد المجتمع الواحد، ويمكن ملاحظة ذلك من طبيعة الوقف ذاته، وآثاره على المستفيدين من

---

(١) دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجات الأمة، محمد عمارة، في ندوة: (نحو دور تنموي للوقف)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٩٩٣م، ص١٦٣.

الوقف وتقديرهم للموقفين، كما يمكن ملاحظة ذلك من خلال التعرف على درجة ومقدار الالتقاء بين أفراد المجتمع اليومية والأسبوعية والسنوية، فإذا عرفنا أن المساجد تأتي في المرتبة الأولى من حيث الأعيان الموقوفة على امتداد العالم الإسلامي؛ فهي أكثر من أن تُحصى وأعز من أن تُستقصى... كما أن مظاهر كثرة المساجد من الظواهر التي أثارت دهشة الرحالة الأوربيين للعالم الإسلامي[(١)]. وهذه الكثرة في المساجد مدعاة لتعدد اللقاء بين أفراد المجتمع في الحي الواحد الذين يؤدون الصلوات خمس مرات في اليوم، ثُمَّ السؤال عمن غاب وعيادته إن كان مريضًا، وكل ذلك يعمل بشكل غير مباشر وقوي على تماسك وترابط أفراد المجتمع الواحد، بسبب كثرة المساجد المعتمدة في قيامها على نظام الأوقاف، وما تؤديه المساجد من دور اجتماعي يتمثل في تهيئة بيئة خصبة ورحابة مكانية لتلاقي الناس -أفرادا وجماعات- في الحي الواحد بشكل دائم ومستمر. "فلقد نشأ الوقف في رحاب الإسلام ممهدا وموطنا لنشوء الدولة الإسلامية، ثم رافقها في كل مراحل وجودها، يدعمها ماديا في أداء رسالتها الحضارية، ولقد كان مسجد قباء والمسجد النبوي أول عمل وقفي أعلنت به الدولة الإسلامية عن وجودها عمرانيا، فكان المسجد محققا لتآلف المسلمين وترابطهم الناشئ عن التقائهم يوميا وتمثلهم للتوجيهات النبوية التي صاغت المسلم صياغة جديدة. لقد كانت هذه شواهد وقوع الوقف في نشأة الدولة الإسلامية وهي تشهد أيضا لشيوع عمليات الوقف حتى صارت مكونا من مكونات النشاط الاجتماعي التضامني في المجتمع المسلم"[(٢)].

إن ما سبق ذكره يمكن إدراجه ضمن منظومة الآثار الاجتماعية الإيجابية للأوقاف،

---

(١) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص ١٨١-١٨٢.

(٢) الوقف الذري رؤية جديدة في ضوء المستجدات الاجتماعية والاقتصادية، مصطفى بن حمزة، في (مؤتمر الشارقة للوقف الإسلامي والمجتمع الدولي)، الشارقة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

وهي كثيرة ولله الحمد، ولكن هذا لا ينفي أن عدم الفهم الكامل لمقاصد الوقف، أو الجهل ببعض الأحكام الشرعية من قبل بعض الواقفين، قد أثمر آثارًا اجتماعية سلبيّة، نتجت جراء الفهم غير الصحيح لأحكام الشرع ومقاصده، ويمكن حصرها في الآتي:

١. يمكن القول: إن التطبيق الخاطئ من بعض المسلمين للوقف أدى إلى ترسيخ العديد من التقاليد الاجتماعية المرتبطة بالمواسم الدينية البدعيّة، مثل الاحتفال بالمولد، والاحتفال بعاشوراء وليلة النصف من شعبان، وإحضار المنشدين وإيقاد الشموع وصرف المبالغ الطائلة عليها أو القراءة على القبور، أو وظيفة الترقية وهو الذي يعلن ظهور الخطيب يوم الجمعة. كما سادت في مناطق أخرى من العالم الإسلامي أوقاف موقوفة على قراءة القرآن للأولياء فيذكر (إسماعيل بن علي الأكوع) أن كثيرًا من الأوقاف في المخاليف الشمالية من اليمن مُحبّسة على قراءة القران في مساجد معينة، مشهورة لها في نفوس سكان المناطق التي تقع فيها نوع من القداسة!، بينما نجد غالب أوقاف المخاليف الجنوبية من اليمن وكذلك تهامة ومخلاف حضرموت على قراءة القرآن للأولياء والصالحين [١]. وهناك مناطق أخرى من العالم الإسلامي اتجهت مصارف أوقافها لإقامة ذكريات النبي -ﷺ- مع الإطعام في تلك المناسبات، وإقامة حسينيات واحتفال يُقام لإحياء مناسبة يوم الغدير، وقراءة القرآن بشكل يومي مدى الحياة لتثويبه للواقف، أو في عبادة أبدية مثل تخصيص من يقوم بأداء الصلوات الخمس للواقف كل يوم مدى الحياة [٢].

---

(١) كيف أدى الوقف دوره خلال التاريخ، إسماعيل بن علي الأكوع، في ندوة (أهمية الأوقاف الإسلامية في عالم اليوم، المجمع الملكي لبحوث الحضارات الإسلامية، لندن، ١٤١٧هـ، ص ٢٢١.

(٢) هذه بعض نماذج من الأوقاف الجعفرية المسجلة في محكمة الأوقاف والمواريث في الأحساء -وهي الأظهر بين جميع الأوقاف المسجلة-. انظر: في الوقف الإسلامي، عبد الهادي الفضلي، في ندوة (أهمية الأوقاف الإسلامية في عالم اليوم)، المجمع الملكي لبحوث الحضارات الإسلامية، لندن، ١٤١٧هـ، ص ٤٢٠.

وعلى الرغم من التحفظ الشرعي على هذه الأمور التي ليس لها دليل شرعي يعضدها، إلا أن الواقفين عملوا على تعزيز هذه التقاليد وترسيخها في المجتمع من خلال الشروط والمصارف التي كانوا يثبتونها في حججهم الوقفية وتحبيس الأعيان عليها، ونظرًا لكثرة الأوقاف وانتشارها سابقا فإن الكثير من هذه التقاليد ما زال باقيا حتى اليوم في المجتمع المسلم، وهكذا خرجت بعض الأوقاف بهذه المصارف المخالفة عما شُرعت له بمعناها الإسلامي الدقيق من كونها ـ صدقة محرمة .... فبعد أن كانت الأوقاف إحدى الوسائل من أجل تحقيق التضامن الاجتماعي بين أفراد المجتمع الإسلامي أصبحت الأوقاف عالة على المجتمع تبدد ثرواته في أمور أقل ما توصف به أنها ليست من الدين في شيء[1].

٢. واستكمالا للفقرة السابقة نستطيع التوكيد أن الفهم غير الصحيح لمقاصد الوقف قد جعل بعض الواقفين يجتهدون في تحديد مصارف لغلات أوقافهم وهذا التحديد قد عاد ببعض الجوانب السلبية على المجتمع، ومن ذلك ظهور فئة من أفراد المجتمع استكانت وآثرت الدعة والبطالة، وأصبحت عالة على المجتمع تعيش على صدقاته، وقد حدث هذا حينما توسع الواقفون في جعل الرُبط والزوايا والتكايا والخوانق باسم التفرغ للعبادة. نعم لو كانت هذه الأربطة والزوايا تؤدي رسالتها التي كانت ترمي إليها في أساس نشأتها في المدن، وبعد أن انتقلت من الثغور المحاذية للأعداء إلى داخل المدن والحواضر الإسلامية، وهي إيواء الغرباء وطلبة العلم، كما وصف الرحالة ابن جبير ذلك بقوله: "إن هؤلاء الطلبة قد استصحبوا الدعة والعافية، وتفرغوا لما هم بشأنه من عبادة ربهم وطلبهم للعلم

(١) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص١٤٠، وكذلك: ص٢٩٣.

ووجدوا في ذلك كل معين على الخير الذي هم بسبيله"[١]. نعم لو استمرت في تأدية هذه الرسالة السامية، وهي تهيئة البيئة المكانية المناسبة لطلب العلم، فهي نِعمَ المصرف من مصارف الوقف، ولكنها في العصور الأخيرة انحرفت عن هدفها الأصلي، وساعدت على تنامي تيار التصوف في العالم الإسلامي، بل هناك من يقول: "وإذا تأملنا في الكتب التي تؤرخ لطبقات الصوفية فسوف نجد ترابطا وصلة بين تنامي تلك الزوايا والخوانك والأربطة وبين ازدياد عدد المنتسبين للتصوف.. وهذا الدعم للتصوف من الأوقاف بصوره المختلفة كان له آثاره في نشر مفاهيم التصوف وقيمه"[٢]، بل هناك من يرى أن المكانة الدينية التي تهيأت لشيوخ الطرق الصوفية في المجتمع من خلال هذه الأربطة، انتقلت بهم إلى أن يسعوا للحصول على الجاه الاجتماعي، وكثيرا ما جرى الخلاف بينهم على زعامة الزاوية أو طريقتها الصوفية، محولين التصوف بذلك من ظاهرة دينية إلى ظاهرة اجتماعية سياسية، ونال شيوخ الطرق الجاه والمال والدنيا[٣]. وبكل حال فهذا أثر عقدي ليس المجال هنا للحديث عنه، ولكن الحديث عن جانب منه وهو تولد روح الاستكانة والتذلل والبطالة، "والانصراف إلى الحياة اللاهية الخاملة... نتيجة اعتماد الكثيرين على الأوقاف ولاسيما المقيمين منهم بالخانقاوات والرُّبط والقباب"[٤]. وكان هذا نتيجة لصرف الأوقاف عن هدفها الأساس ووظيفتها السامية. وهذا ما أظهرته الدراسة التي أعدتها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في

---

(١) رحلة ابن جبير، مرجع سابق، ص٢٧.

(٢) الأثر الثقافي للوقف في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٩٠-٩١.

(٣) مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين (١١٨٦-١٢٥٦هـ/١٧٧٢-١٨٤٠م)، يوسف جميل نعيسة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الجزء الأول، ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ، ص ١٦٥.

(٤) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص٢٢٢، وكذلك: ص ٢٨٦.

المملكة العربية السعودية عن الأربطة بمنطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة[١]، فقد وجد قرابة النصف من سكانها يعتمدون على المساعدات فحسب رغم قدرتهم على العمل، وتنامي لديهم وذريتهم روح الاستكانة وذل السؤال والبطالة مع مرور الوقت، فضلًا عن المشاكل الأمنية التي قد تحدث من سكان هذه الأربطة. ومما يُستغرب قول أحد الباحثين: إنه لا توجد دراسة موثقة عنها تحدد أماكنها وحالتها البنائية، والمستفيدين منها ودراسة طلبات المتقدمين للاستفادة منها، لتقديم الأحوج فالأحوج منهم[٢].

والذي يظهر أن الباحث يقصد دراسة منشورة عنها، فمن المؤكد أن لدى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف في المملكة العربية السعودية حصر كامل عنها، وقد وقف المؤلف على بعضٍ من هذه الجهود ولعل هذه الدراسات المسحية عن الأربطة الموجودة في منطقة مكة المكرمة (مكة المكرمة، جده، الطائف) وكذلك منطقة المدينة المنورة، والتي قامت بها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف في المملكة العربية السعودية ترى النور قريبًا في مطبوعات منشورة.

وجماع القول أن للوقف دورًا اجتماعيًا كبيرًا ومهمًا، على الرغم من عدم وضوحه في بعض الأحيان، وذلك يعود إلى تأخر ظهور الآثار الاجتماعية في حياة المجتمعات واحتياجها إلى عقود طويلة من السنين لتتضح للعيان، وهذه الآثار في جملتها آثار إيجابية نافعة، وإن حدثت بعض الآثار السلبية، كما لوحظ في الأثرين الأخيرين، إلا أن ذلك عائد بالتأكيد إلى خلل في تحديد مصارف الوقف، أو في ضعف الإشراف عليه وليس إلى الوقف ذاته، وهذا ما يؤكد ضرورة العودة بالوقف إلى دوره الفعال في المجتمعات المسلمة لجني ثماره الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والتربوية بشكل متوازن ومتكامل.

---

(١) تقرير عن الأربطة الخيرية في منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، مرجع سابق، ص ٣.

(٢) التطور المؤسسي لقطاع الأوقاف في المجتمعات الإسلامية المعاصرة (دراسة حالة المملكة العربية السعودية)، محمد أحمد العكش، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، ١٤٢٧هـ، ص ٩٣.

وفي حكم المؤكد أن الآثار الاجتماعية للوقف تزداد كمًا ونوعًا، وتبدو أكثر وضوحًا كلما كان الوقف مركزًا في مصارفه على الاحتياجات الاجتماعية في المجتمع، مثل: رعاية الفئات الخاصة والأيتام، والعجزة، والفقراء، والغرباء، والمطلقات والأرامل، والمساجين وأسرهم، وغيرهم من الفئات المهمشة في المجتمع.